عابرون بلا أثر

(قصص قصيرة)

إدريس النعيمي

المرأة-القندس

طبع المسيسبي المتوحش حياة سكانه الأصليين،عاشوا حياتهم هناك بسلم وسلام،معتمدين على خيراته للصيد والزراعة البسيطة،وممارسين لأنواع من التجارة الصامتة بين القبائل الهندية المنتشرة على حوضه الواسع.

ظل عهد السلام قائما إلى حدود قيام الكشوفات الجغرافية والتي أوصلت المستوطنين البيض إلى روافد المسيسيبي عبر قواربهم البخارية،حيث استخدموا النهر لاستكشاف المناطق الداخلية والروافد الشمالية المتعددة،وحينها ستختفي تلك الزوارق الطويلة والخفيفة للسكان الأصليين المعروفة باسم:

"الكانو".

من هذا التاريخ ستبدأ حقبة السيطرة الأوربية على النهر وروافده،وستزدهر تجارة اعتمدت كليا على كائنات النهر الكثيرة ألا وهي:

-تجارة الفرو.

إنها التجارة التي طبعت المسيسيبي لقرون،وكان لها انعكاس صادم على التنوع الحيواني بالنهر العظيم،وستكون دافعا رئيسا لاستعمار كل القارة واقتسامها بين معمري إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وهولندا والروس السيبيريين.

المعروف أن تجارة الفرو على نهر أمريكا الكبير تشكلت منذ الفترة الكولومبية حينما وطئت أقدام الأوربيين أرض العالم الجديد.والمقصود بها تنظيم حملات واسعة قصد قنص الثدييات ذوات الدم البارد مثل الثعالب والقنادس، وأخذ جلودها قصد صناعة الألبسة وبالخصوص المعاطف والقبعات ...هي تجارة ضاربة في القدم كان يتعامل بها السكان الأصليين للمسيسيبي فيما بينهم بشكل متناغم مع الطبيعة ومحافظ على التنوع البيولوجي،إلا أن قدم المستكشف الفرنسي "جاك كارتييه" في رحلاته الثلاث خلال القرن السادس عشر، فكانت تلك المرحلة بداية لتجارة الفراء بين الأوربيين والسكان الأصليين.

وقد ازداد الطلب لدى الأوربيين على فراء القندس بالخصوص حيث استخدم في صناعة القبعات التي أضحت مظهرا للزينة، فجمع التجار الفرنسيين ثروات هائلة، ثم لحقهم الهولنديين والروس وأخيرا الإنجليز الذين جعلتهم هاته التجارة يسيطرون على معظم أمريكا الشمالية.

ومن تجارة الفراء سنقص حكايتنا عن "الكورور دي بوا" أو"عداؤوا الغابة" وقد أطلق هذا الاسم على قبيلة من الهنود الحمر كانوا يقدسون " القندس" ولما رأوا تلك الإبادة التي طالت هذا الحيوان المسكين بعد ظهور الغزاة الأوربيين،اتخذوا من الغابات الكثيفة المحيطة بروافد

الميسيسيبي ملجأ لهم وعملوا حينها على شن حرب ضد كل من يقوم بحملات القنص في المجال المجاور لهم.

وقد تزعمتهم امرأة شجاعة،لها قدرة فائقة على تسلق الأشجار الشاهقة،والغوص في مياه النهر لوقت طويل،وفوق ذلك كله كانت تتقن الرمي بالنبال في أي وضعية كانت عليها.كان الفتاة تدعى"إيرواكي".. تلك "المرأة-القندس" التي ابتكرت خطة ذكية استطاعت بفضلها تحقيق النصر لجماعتها لوقت طويل.وقد عملت إيرواكي على التخفي في جلد قضاعة كبيرة،ولما تبصر التجار الجشعين تظهر لهم نفسها من بعيد،كانت وهي تخاطر بروحها تعمل على استقطاب القناصين إلى الفخ المنصوب لهم وسط الغابة،وحينها يتحول الصياد إلى فريسة، حيث تطبق جماعة عدائي الغابة على أعدائهم وأعداء القندس المسكين.

انتشرت قصة المرأة –القندس بعدما حكى عنها كثيرا التجار الناجين،وأضحت الغابة التي اتخذتها سكنا مجالا للرعب والخوف،لا يجرؤ عليها التجار إلا في حملة واسعة منظمة وبأسلحة نارية فتاكة،كانت حينها جماعة عدائي الغابة يذوبون في الأدغال كأنهم أشباح فلا يعثر لهم على أثر.وما هي إلا أن يهاجموا أعدائهم على حين غرة،وكثيرا ما قضوا على وفد كامل من الصيادين الغزاة،وبعدها فقط يتم الاستيلاء على معداتهم وأسلحتهم.

وحينها يتم تحرير القنادس الحية وإطلاقها مجددا في البرية،يقام طقس تعبدي حزنا على القنادس الهالكة ليقوم عدائي الغابة بدفنها حتى ترقد بسلام،وقد انتشرت قصة إيرواكي وشعبها في غابات النهر الشمالية،وتخوف التجار من الاقتراب في محيطها القاتل،وهذا كان له أثر السحر على تلك الغابة التي ازدهرت فيها القنادس من جديد،وعاشت في سلام لزمن طويل،طويل جدا..بعدما حمتها المرأة-القندس من الإبادة حتى سميت تلك الرقعة من النهر ب:

-غابة القنادس.

وبعد حياة طويلة مليئة بالتضحيات فارقت المرأة-القندس الحياة، فدفنت قرب النهر بعدما ألبسها شعبها جلد القندس،هذا الكائن الذي عشقته حد العبادة،ودافعت عنه حتى عرفت باسمه.وقد ظلت تلك الغابة ملجأ لعدائي الغابة الذين كانوا يفضلون الزراعة وصيد الأسماك على تلك التجارة التي يمقتونها،عاشوا هناك لزمن طويل بعد رحيل إيرواكي ولم يجرأ أحد من تجار الفرو على الاقتراب منهم،بل سرت شائعات تقول أن الأرواح تسكن هذا الجزء من الغابة وأن قنادس تلك المنطقة تركها أفضل من قنصها.

وهكذا ساهمت قصة المرأة-القندس في الحفاظ على القنادس وباقي الكائنات ذات الفراء السميك على وجودها بالمنطقة، ونجت من الانقراض التام الذي شهدته مثيلاتها في مناطق واسعة من حوض النهر العظيم نتيجة الجشع الشديد لتجار الفراء،كل ذلك بفضل امرأة شجاعة وشعب قدس عناصر الطبيعة فحافظ على التوازن فيها.

المدينة المختفية

ففي زمن ما، ومكان مجهول قدم شعب سومر الذي سيطبع الفرات بالخلود ، سينشئ ملوك هذا الشعب الراقي مدنا أسطورية هي بمثابة أولى المستوطنات البشرية ..سيدون هذا الشعب المثقف اسمه كأول شعب استخدم الكتابة في التاريخ ، كان ذلك قبل 5000 سنة خلت،أشهر مدنهم كانت: " آكاد العجيبة " هاته المدينة التي منحتهم اسمهم وشهرتهم ، بل وسيطرت آكاد على عشرات المدن والأمم المجاورة لها عهد قوتها...هذا ما أخبرنا به أعظم ملوكهم وأكثرهم سطوة وشهرة ، إنه " صرغون الكبير" والذي سيحكي قصته مع والده الروحي وهو نهر الفرات،حيث يقول ملك آكاد:
" أنا صرغون الكبير، ملك آكاد .

كانت أمي فقيرة ، ولم أعرف أبي ، الذي كان يقطن الجبال.

مدينتي " أوزوبيرانتو " على ضفة الفرات حيث ولدتني أمي ، خلسة في السر، ثم دفعتني في قفة من القصب ، المغلفة بالإسفلت إلى النهر.

ولم يكن النهر قويا ، فانتشلني منه الساقي "آكي برفش" فاحتضنني ورباني ، وجعل مني بستانيا.

وهناك في الحقل ، أغرمت بي عشتار، فجعلتني ملكا على آكاد."

ولطالما ولد الأبطال من رحم المعاناة ، وكثيرا ما كانت مياه الأنهار بلسما لخلودهم ، ومنطلقا لشهرتهم الخالدة ، وصرغون لم يكن الاستثناء...لسان حال الملك المتوج فوق عرش ربة عاشقة يقول أيضا :

أنا أعترف أني لست من سلالة ملكية ، وأني سعيت إلى مجدي سعيا ، لأثبت مقولة :

-" أن الإنسان صانع لقدره".

أنا صرغون الملك ، لست من دم الآلهة ، فقط كبيرة الربات ، ورمز الخصوبة ، حورية النهر "عشتار المقدسة " هي من هواني قلبها ، وعشقتني جوارحها ، فحملتني بقوتها الخارقة التي لا تقهر للقضاء على خصمي الملك " لوكا جيزي " ومن ثمة اعتلاء عرش آكاد الجميلة .

عشتـار يا ربة الأقدار ، أنت من جعلتني حاكما جبارا ..بل وأول حاكم للعالم القديم يتمكن من توحيد الشرق تحت حكم آكـاد.وأن شعبي هو الذي قدر له من بين الشعوب الأخرى أن يوحد مدن الفرات شرقا وغربا ..

ألست أنت يا عشتـار من كنت تباركين السيف الذي خضت به المعارك ، والتي بلغت الأربعة والثلاثين معركة ...كلها وسمتها بالنصر العظيم؟

ها أنذا يا عشتـار، أقف أمامك ، وإنك لا تستطيعين حتى النظر في عيني مباشرة .. أفكل هذا عشق منك لي يا ربة الخصوبة ؟؟

.... كان صرغـون الكبير ، الذي تبناه النهر المنساب ، وأغدقت عليه عشتـار حبا أبهر الألباب ، يجلس كل ليلة يكتمل فيها القمر بدرا كاملا ، ويشرف من فوق قصره على النهر الذي يعكس ضوء القمر ... وفي هاته الحالة تتمثل أمامه معشوقته " عشتار الساحرة الفاتنة "... وحينما يسألها الملك الأسطوري عن سر حبها له ، تفضل هي الصمت على البوح ،إلى أن فكر صرغـون الكبير في حيلة محكمة ، خطرت له على باله وهو يحاور ربة الأقدار تلك.

فلما اكتمل القمر ذات ليلة دافئة ، وانعكس انعكاسا تاما على مياه الفرات ، نزل صرغـون وحيدا إلى النهر الذي يدين له بحياته ،ليلتقي مباشرة بتلك التي يدين لها بمجده ...لحظتها أبصر حجرا لامعا من الصوان ، فوق المياه التي كانت صورة عشتار تنعكس عليها ... منقوش على ذلك الحجر رموزا لم يفهمها الملك تمام الفهم.

فأسرع يستدعي الكاهن الأعظم للمثول بين يديه في الحال ، ولما حضر عراف آكـاد أطلعه الملك بالكتابة التي على الحجر ....ساعتها أخبره الكاهن " حاران- ريموش" بما ينطق به الحجر المقدس :

-" يا صرغـون الكبيـر، يا حاكم الجهات الأربع،حينما يكتمل القمر بدرا في الشهر القادم ،انزل إلى الماء – حيث ولدت أسطورتك – وارمي هذا الحجر في اتجاه مجرى النهر العظيم ...وحينما يحل الصباح قد جيشك إلى حيث ستقودك إشارات الحجر إلى أن تستعيده، حينما يظهر لك من بعيد على شكل غراب أسود ينقر مياه النهر.... وحذاري يا صرغـون أن تقرأ ما هو مكتوب على الجهة الأخرى للحجر ، وإلا ستصيب " لعنة عشتار" آكـاد كلها ..."

أسرع الملك الآكادي يقود جيشه الجرار ، يمني النفس في أن يعثر على حجر الصوان ، يعجله الفضول إلى اكتشاف ما هو مكتوب في الجهة المحرمة من الحجر ، وقد أدرك مراده بعد معارك طويلة على طول مجرى النهر ، خاضها مع ممالك كانت تتخذ من الحوض المائي مستقرا لها .... وهكذا عثر على الحجر عند التقاء الفرات العظيم، بدجلة الخالد، في أحد المعابد التي اكتسحها جيشه ...

غير أن كاهن هذا المعبد كان قد فطن إلى ماهو مكتوب في قطعة الحجر تلك ، فعمل على طمس الجهة التي لم يضطلع عليها صرغون الكبير ، وبهذا فوت على الملك تلاوة " التعويذة السحرية " التي من المرجح أن تنجي مدينة " آكـاد " العظيمة من لعنة الاختفاء.

وهكذا لم يمضي زمن طويل بعد رحيل صرغون الكبير حتى دب الضعف في أرجاء المملكة التي امتدت زمن هذا الحاكم الخالد من البحر إلى النهر ... بل وحلت الكارثة على شعب آكاد ، كما جاء على لسان أحد كتابها :

" لقد توقف النظام عن الوجود ، والتهمت العاصفة كل شيئ ... لقد دمرت المدن ، وهدمت المنازل ...وأخذ الملك إلى أرض " عيلام " أسيرا ..وهناك مكث حزينا ".

لقد تحققت لعنة عشتار على آكاد ، فانهارت المدينة ، بل واختفت من على وجه الأرض،تماما مثل مدينة شداد " إرم ذات العماد" .... فلم يعثر لها على أثر إلى حدود اليوم.

-فأي سر كانت لتحمله تلك التعويذة لتنجي آكاد من الزوال؟؟

أحمد الغريق:

كان عمر أحمد السنة تقريبا يوم أصدرت مجموعة مسناوة أغنيتها الشهيرة حمادي، تلك المجموعة التي أراد لها مؤسسها الروحي العربي باطمة أن تحمل اسما لقبيلته أولاد مسناوي المجاورة لمشرع بن عبو على بعد خطوات قليلة من نهر أم الربيع الكبير.

شب الفتى أحمد وهو ينهل من تراث قبيلته ويعيش حياته اليومية على منوال أقرانه من صيد القنفذ ليلا بواسطة كلاب القرية ، أو لعب " فريدة راكوب " و " اللبي " ، ثم السباحة في عين الماء المدورة التي طارت شهرتها الآفاق.

ولشدة ما كان أحمد يسر حينما كانت تحط بالقبيلة خيمة الشيخات، كان عرسا بكل المقاييس، طرب وغناء حتى أواخر الليل ، وحينما يوشك الحفل على الختام يتقدم أحمد وباقي الشباب لتعلم العزف على الكمان " الكمنجة " ..تلك الآلة الجميلة والتي برع فيها الرعاة أكثر من غيرهم لكون معظمهم أضحت ترافقه آلة كمنجة صغيرة معدة من إناء حديدي وبضع شعرات لمهرة من القرية انتزع منها على غفلة من سيدها، وعصا رقيقة من شجر السدر، ثم مادة لزجة من شجر "البطم" الذي ينموا على سفوح الوادي الجاف.

كان الفن الشعبي جزءا لا يتجزأ من تراث القبيلة، لذا وجدت أغنية حمادي صدى كبيرا حتى أضحت كلمات الأغنية محفوظة عن ظهر قلب، ولما شب أحمد اشترى آلة تسجيل سوداء تعمل ببطاريات صغيرة ، وأول ما اقتنى الفتى من أسطوانات " كاسيط " كانت أغنية "حمادي" لمجموعة مسناوة الغنائية .ولطالما ردد كلمات ذلك المقطع الرائع من الأغنية ، بل وكان حينما ينتهي يعيده بعود أو قلم، كان يعشقه حد الثمالة، وخاصة حينما تردد الأغنية :

-ناوي يقطع الواد.

-ويبلغ المراد.

-ملي طلع النهار يا السامع.

-رجعت البغلة للدار.

-وتجمعوا أهل الدوار.

-وتعرفت ديك الخبار.

-الميمة في صهد النار.

تولول وتنادي:

-فينك يا حمادي.

-حمادي لا ترحل.

-أوراه الواد حمل.

-أوراه تقطع الدير يالميمة.

-واش بغيت ندير.

-شفت البغلة رجعات .

-قلت وليدي مات.

هاته الأغنية العاطفية جعلت أحد رجال القرية حينما كان يمر على أحمد وهو يشغل آلته الموسيقية فيقول له مازحا :

-يا أحمد ألم يعد حمادي بعد ؟

يضحك حينها أحمد ملئ فيه ويرد على المجاملة:

-حمادي داه الواد.

كلمة قالها لسان أحمد ولم يدري أن المصير قد يتشابه حد التطابق بين القائل والذي قيل عنه،ولم يكن يدري حينها أن قصة حمادي سيكتب لها الحياة من جديد وستعاد في أسوء سيناريو لم يتوقعه الشاب أحمد حتى في أحلك أحلامه.

تمضي الأيام بأحمد بطيئة في قريته النائية، يعيل والديه وإخوته على اعتبار أنه الابن البكر فالمسؤولية مضاعفة والحمل ثقيل، كان أحمد فتى كريما يشتغل بقوة سواعده ، فجمع رزقا موقعا بعرق الجبين، ترافقه في عمله دائما دراجته الهوائية التي اعتبرها رفيقته وتفنن في تزيينها ألوانا وأضواء وصباغة.

وذات ربيع مزهر، حيث حل آذار مارس بردائه الأخضر ليبسط الخضرة على القرى ويزين الحقول بأجمل الأزهار،كان الزمن يوافق 2006 ميلادية، حينما توجه أحمد نحو هوايته التي داوم عليها في الأعوام الأخيرة ، وهي :

-صيد أسماك النهر اللذيذة.

فخرج ذات أحد نحو ضفتي الوادي الساكن،أو هكذا يبدو للرائي.. راكبا دراجته وحاملا صنارة الصيد وطعما اقتناه من سوق السبت الأسبوعي، حينها بدا وكأنه يسير على خطى حمادي ، وإن استبدل أحمد البغلة بدراجة حديثة ، رغم أن كلاهما أخبر أمه بالخروج ، ومعا كانا يسهران على الحقول ، حقول الزيتون التي تشتهر بها المنطقة.

غير أن القدر بين أحمد وحمادي كان متشابها في الخروج مختلفا في الرجوع ، فأحمد لم يمل به "الدير" حزام البغلة الذي يشد به ركابها. بل ما مال به وأودى بحياته كانت صخرة عملاقة ذات صيت سيء بين صخور النهر، حتى أن الأهالي أطلقوا عليها اسم أكثر الكائنات رعبا وفزعا:

-صخرة رد الغول.

تلكم الصخرة الصماء الملساء كان قد اختارها أحمد مكانا لرمي صنارته بحكم ارتفاعها وإشرافها على مياه النهر المنساب سير الثمل. بعدها بدا وأن الخطوات الأخيرة لأحمد ستكون فوق تلك الصخرة القاتلة،هوى به نعلاه نحو النهر في لحظة سهو عميقة، وما لبث أحمد أن تقاذفته مياه النهر وغاصت به نحو الأعماق،كان أحمد ذا حظ تعس، فهو لا يحسن السباحة.

إنها الميزة الكفيلة بإنقاذه من هكذا مصير،وعدم تعلمها هو الذي دفع بأحمد المسكين نحو حتفه المفجع، على عكس حمادي الذي قيل لنا في تتمة القصة المسناوية أنه عاد بعد أن نسيته القبيلة، وطوت خبره،وبعدما اعتبرته صار طعما لأسماك النهر النهمة .

-رجع حمادي وما رجع أحمد.

-عادت البغلة تحمل خبر حمادي، وما سمعنا خبرا من دراجة أحمد بعد أن ظلت ساكنة فوق صخرة الموت، لعلها كانت هي بدورها تنتظر عودة صاحبها الذي بدا أنه لن يعود.

كان خبرا صاعقا ذاك الذي استقبلته القرية ذات مساء رهيب ، حينما دوت حالة الاستنفار القصوى ، نصبت خيمة كبيرة أمام بيت أحمد ، وشد الكل الرحال نحو النهر رجالا شيوخا ونساء، الجميع ظل ينتظر طيلة أسبوع من الزمن المتوقف عودة أحمد أو سماع خبر عنه.

-بدا أن أحمد اختفى ولم يعثر له على أثر..كان الأهالي وهم يراقبون طويلا أي تحرك لمياه النهر قد تجود عليهم بخبر، يودون لو:

- تعاد حكاية حمادي ويعود أحمد سالما من الوادي...

كانت أم أحمد أكثر القائلين بهذا التمني، بل إنه أضحى بمرور الأيام حقيقة ثابتة لا تقبل العكس في مخيلتها،إذ تعتبر يقينا أن ابنها ما مات، ولكن النهر يخفي قصته وسيعود أحمد ليروي لها تفاصيل الحكاية.

عادت أم أحمد إلى بيتها وما عاد أحمد،أحمد الذي سيظل حاضرا في ذاكرة الأهالي، كل منهم يؤول له نهاية حسب مخيلته،فمنهم من قال إن أحمد ترك أغراضه وهاجر بعيدا..-وآخرون اعتبروا أحمد سباحا لا يغرق بتلك السهولة ، وربما فقط سبح بعيدا وعما قريب سيعود حاملا أسماكه التي اصطاد ، كان هذا القول للتيار الحالم المتفائل. ..-أكثر المتشائمين حينها هم الذي كانوا يودون لو يكذبون حدسهم الذي يخبرهم أن :

-أحمد قد كتب له الماء قبرا .

- وأن صخرة الرعب قد خطت له الغرق قدرا.

وحده ذاك الشيخ الذي كان يمازح أحمد ظل يردد وهو عائد ليلة العثور على جثة الفتى طافية فوق مياه النهر الغادر بعد يوم بحث مضن:

"حمادي عاد، وأحمد داه الواد"..

هروب كتاب

لما ألقى وحوش السهوب المنغولية مكتبة بغداد في مياه نهرها العظيم ، بعد أن أخمد جنود هولاكو مقاومة المدينة وذبحوا خليفتها ، وحاشيته ، ومعظم أهلها ..فأرادوا أن يثبتوا معدنهم المتوحش ، بأن يقيموا جسورا من المجلدات حتى تعبر عليها خيولهم ، بعدما هدموا سابقا كل الجسور في طريق دخولهم لاستباحة المدينة المكلومة.

هنا عزم أحد وراقي بغداد واسمه "ميمون ابن سهل الأصفهاني "على تهريب مخطوط عز عليه فقده ، كان ذلك المخطوط إرثا لأجداده وصل إليه...ورغم أن ميمون هذا شارك في المقاومة اليائسة ضد التتار ، ورأى بأم عينيه مصرع جل أهله ، ولم ينجه هو كذلك من القتل سوى السرداب السري الذي كان يوصله من بيته نحو مكتبة بغداد التي كانت تجاوره ، حيث اختبأ من المطاردة المسعورة التي نفذها جنود التتار المتوحشون.

وفي جنح الليل انسل ابن سهل هذا خارج المدينة المنكوبة فارا بحياته، وبعدما ابتعد عن محيط الخطر نسبيا جلس قرب النهر ينظر والألم يعتصر قلبه إلى الكتب التي غطت النهر الكبير وهو يفيض بالرماد ، وإذ هو على تلكم الحال إذ به يبصر مخطوطا يتمايل يمنة ويسرة فوق مياه النهر ، تماما مثل تابوت النبي موسى الكليم حينما قذفت به أمه بوحي من ربها في عرض مياه النيل.

كان ميمون يعرف تماما مخطوطه بعلامة الغلاف الأصفر الذي هو مغلف به بإحكام ، ويبدو أن الحظ قد انتصب واقفا معه هاته المرة ، فلو انتبه هؤلاء التتار الملاعين للون المخطوط لعدوه ذهبا خالصا ، وإذن لاعتبروه من غنائم المدينة المنهوبة بالكامل.

سبح ميمون ابن سهل نحو جائزته، وسرعان ما صدق ظنه، وعادت له روحه، فهذا المخطوط آخر ما تبقى له في هذه الدنيا، بعدما فقد أسرته ومعظم أهله ، وبل ومدينته بغداد التي قدم إليها أجداده من فارس ليستقروا بها أيضا..

كان ابن سهل يدرك أن الخطر المغولي قد يدهمه في أية لحظة ، لذا انتشل المخطوط ، ثم انزوى نحو الضفة ليعد ألواحا طافية أعدها بإحكام ، وعبر بها النهر هاربا بصيده الثمين ، والذي بدا أنه لم يتبلل إلا لماما..

وهو على النهر تتقاذفه مياهه ، إذ ينتظر ميمون الوراق قرص الشمس حتى يشتد حره ، ليرفع المخطوط فوق رأسه حتى تجفف أشعة الشمس ما تبلل من صفحات في ذاك المخطوط المحظوظ، ولما أحس أنه ابتعد عن الخطر مال نحو الضفة ليستريح ، وسرعان ما لمح قاربا يتجه نحوه ، كانوا ثلاثة رجال وامرأتين قد تمكنوا من الهرب هم كذلك من جحيم الهلاك.

ركب ميمون ابن سهل مع القارب ، الذي كانت وجهته جنوبا نحو حاضرة البصرة ، وبعد حوالي الأسبوع وصلوها ، بعدما كانت المدينة وجهة ميمون أيضا ، بل وستصبح في قادم الأيام موطنه الجديد بعدما نجت من الاجتياح المغولي إثر قرار القائد المغولي المدمر هولاكو الاتجاه نحو همذان ..وهكذا قدر لميمون الوراق ومخطوطه حياة أخرى :

- الأول حينما استقر بالبصرة مواصلا مهنته وراقا في مكتبتها التي ستسمى لاحقا ب" مكتبة الأسرة العباسية ".

- والثاني الذي سيكون أول المخطوطات الناجية من الغرق في نهر دجلة الخالد، والذي ستتزين به رفوف المكتبة الكبرى ذات الأحد عشر ألف كتاب .

أخيرا آن للمخطوط الثمين أن يستقر قرير العين ، عند ملتقى الرافدين ، ولسوف يكتب للمخطوط عمرا أطول من منقذه ميمون ، بل وسيستمر موجودا بفضل تضحيات ابن سهل تلك ليصبح أحد أشهر المؤلفات الشعرية الفارسية التي كانت تزين رفوف مكتبة بغداد ،بعدها ستحل المأساة المذكورة ،لينقله دجلة العابر نحو رفوف مدينة :

-البصرة ، مدينة الشرق العائمة.

تلكم هي قصة " شاهنشاه" أو لنقل الجزء المؤلف منه حول عهد الملك الفارسي " قورش الأكبر"... مخطوط ألفه شاعر فارسي يدعى " الفردوسي" بعدما استغرق في تأليف ثلاثين عاما ، إذ أتمه في آذار/ مارس من العام 1010 للميلاد ..يضم "كتاب الملوك" هذا ما مجموعه 60.000 بيت عثر على معظمها بأرض الهند.

أما مخطوط ميمون الوراق فلم يكن يحتوي إلا على ألف بيت ..غير أن تلكم النسخة التي نجت بفضل تضحيات مالكها الأصلي هي من ستكمل مجموع أجزاء كتاب فارس الأغلى :

-" الشاهنامة".

ذلك الألف بيت الذي قطع ما يقارب المائة فرسخ ،هي المسافة الفاصلة بين رميه في نهر دجلة وبين استقراره الأخير برفوف مكتبة البصرة العامرة..

- "حقا إن سفر الكتب لأعجب من سفر بني البشر".

مملكة الحـيرة

هاته المملكة العجيبة،المشيدة على الضفة الغربية لنهر الفرات الخصيب، ستسلط عليها الأضواء مطلع القرن الثالث الميلادي، مع ملوكها اللخميين ذووا الأصل اليمني، بعد أن هاجرت عشائرهم شمالا إثر السيل العرم.

وملوك الحـيرة طارت بقصصهم الركبان ، وعجت قصورهم بالطرائف والحكايات مع الشعراء والصعاليك العرب،ومنهم الملك " جذيمة الأبرش" الذي حكم الحيرة ما بين (233- 268) لميلاد المسيح ، ويقال :

-إنه أول من اتخذ الحـيرة عاصمة للمملكة العربية الموالية للفرس.

وهذا الملك الحكيم ، الذي انتهت حياته مضرجا بدمائه على يد الملكة الزباء ، على إثر قصة مشهورة كان الفرات مسرحا لتفاصيلها ،ومياهه شاهدة على سطوة هذا الملك قبل موته بحيلة غاية في الدهاء... كان جذيمة هذا كثير الغزوات ، حتى وصلت توسعاته منطقة اليمامة والبحرين وإياد باليمن السعيد...ويقال إنه قد أسر من إياد رجلا ذا جمال يقال له :

-عدي بن نصر الايادي.. ولما حمله معه إلى الحـيرة ، أغرمت به " رقاش" أخت الملك ، فطلبت من عدي هذا أن يطلب يدها من أخيها ، غير أنه قال لها :

-"لا أجترئ على ذلك ، ولا أطمع فيه "

فما كان من أخت الملك سوى أنها دبرت حيلة الزواج ، وقالت لعدي ذات يوم :

-" إذا جلس الملك على الشراب ، فاسقه صرفا .. واسقي القوم ممزوجا "(وكان جذيمة قد قرب عدي حتى صار من خاصيته وندمائه)..ثم أكملت :

-" فإذا أخذت الخمرة عقله ، فاطلب يدي منه ، فإنه سيوافق ..فإن فعل ، فاشهد عليه القوم ".

وكذلك صار..وفي ليلة الخمرة تلك أعرس عدي على رقاش ، وبنى بها على عجل ،ولما صحى الملك قال لعدي :

*** ما هذه الآثار يا عدي ؟**

- قال عدي : آثار عرس يا مولاي.

*** قال : أي عرس ؟**

- قال عدي : عرس رقاش..

*** قال :من زوجكما؟ ويحك ..**

قال عدي : الملك..

فندم جذيمة ، وأكب عللى الأرض متفكرا ، أما عدي فأحس خطورة الموقف ..ففر ولم يعثر له على أثر ...وقيل بعدها إنه خرج للصيد ذات يوم بعد فراره إلى إياد فسقط من قمم أحد الجبال العالية ..

أما رقاش فقد حملت وأنجبت طفلا ذكيا أسمته عمرا ، فقربه الملك وأحبه حبا شديدا ، حتى ألبسه الطوق ، فكان :

-أول عربي يلبس الطوق.

وكان أن استطارت الجن عمرا هذا ،فتاه في البرية ، وطلبه جذ يمة زمانا فلم يجده ..وفي أحد الأيام مر قرب مجرى الفرات رجلان من قضاعة هما مالك وعقيل ، ومعهما قينة تسمى :

-أم عمرا.

وبينما جلس الثلاثة للغذاء، إذ أقبل نحوهما فتى قد طال شعره ، وتلبدت أظافره ..فطلب طعاما ، فناولته القينة كراعا ، فأكلها وطلب المزيد ، فقالت أم عمر كلمة صارت مثلا :

-"لا تعطي العبد الكراع، فيطمع في الذراع".

ثم سقتهم خمرا ، وتجاهلت الفتى المجنون ، فما كان منه إلا أن أنشد :

صببت الكأس عنا أم عمر* وكان الكأس مجراها اليمينا**

وما سر الثلاثة أم عمــر* بصــاحبك الذي تصبحينـا**

ثم نهض وأخبرهم بمن يكون ، فقال الرجلان :

-" ما كنا لنهدي جذيمة أنفس من ابن أخته ".... وحملاه معهما إلى الحيرة ، فسر الملك أيما سرور ولما لمح غياب الطوق عن عنق عمر قال :

-" لقد ذهب عمرا ومعه الطوق، فما ذهب عن عيني وقلبي إلى الساعة "..فأخرج مالك وعقيل الطوق ، وأعطياه للملك ، فألبسه لابن أخته ، وقال بعدما صار الطوق ضيقا على عنق الفتى :

-" شب عمرو عن الطوق "....فأرسلها مثلا.

جـذيمة والـزباء:

في إحدى غزوات الملك جذيمة شمالا ، اصطدم بحاكم مملكة الجزيرة " عمرو بن أذينة" فكانت الدائرة على هذا الأخير، حيث قتل في المعركة ، في حين عاد ملك الحيرة سالما غانما.

غير أن أمور تلك المملكة المنكوبة آلت إلى بنت عمرو ، وكانت تسمى " الزباء"... والتي سارعت إلى الأخذ بثأر والدها ، فجهزت جيشهما من العماليق استعدادا لغزو الملك جذيمة في عقر داره...لكن أختا لها تسمى " ربيبة " أشارت إليها بأن تدبر حيلة لقتل عدوها دون حرب ، فقالت لها :

-" أرسلي له خطابا تقولين فيه:" إني لم أرى في ملك النساء إلا قبحا في السماع ، وضعفا في السلطان ..فاتنا نملكك ."

وصل كتاب الزباء والملك جذيمة بمنطقة تسمى " بقة " وهو مصطاف كان يتخذه على شاطئ الفرات الخصيب ، فانطوت عليه الحيلة ، وأجمع رأي حاشيته على المسير إلى الزباء ، إلا ما كان من رجل نسيب لجذيمة يدعى :

" قصير بن سعد"

كان قصير هذا لخمي القوم ، ابن جارية لهم ، وكان أديبا،فطنا ، لا تصدر من أقواله إلا الحكمة وسداد الرأي .. فقد خاطب الملك قائلا :

-" أكتب إليها إن كانت صادقة فلتقبل إليك ، وإلا فلا تمكنها من نفسك ، وقد قتلت أباها "

فرد عليه الملك : " رأيك في الكن لا في الضح " ..بمعنى في البيت لا في الخارج ، فازدرأ رأيه ولم يطعه ، ودعى ابن أخته عمرو صاحب الطوق الذي أشار إليه بالخروج ، فقال قصير:

-" لا يطاع لقصير أمر.. ببقة صرم (قضي) الأمر "

خرج جذيمة بوفده نحو " تدمر " عاصمة مملكة الزباء ، حيث استقبله رسلها بالهدايا على مشارف العاصمة ، فقال مزهوا : " يا قصير كيف ترى" ؟

قال قصير: " خطر يسير ، وخطب كبير .. وستلقاك الخيول ، فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة ، وإن أخذت جنبك وأحاطت بك ، فإن القوم غادرون، فاركب " العصا" فإني راكبها ومسايرك عليها أيها الملك".

وكانت العصا فرسا لجذيمة لا تجاريها الخيل ، وما هي إلا أن صدق حدس قصير ، حيث أحاطت الخيل بجذيمة وحالت بينه وبين "فرسه " التي ركبها قصير وولى هاربا ، فلما رآه الملك قال :

-" ما ضل من تهوى به " العصا " ..

هاته الفرس الجامح ظلت تعدو بقصير إلى غروب الشمس حتى أنجته من الملاحقين له ، وما هي إلا أن أطلت على الحيرة ، حيث عرفها عمرو بن عدي ، فقال :

-" ياخير ما جاءت به العصا " ..فذهبت مثلا عند العرب.

فلما دنا منه قصير قال له : " قتل خالك وجنوده جميعا ، فاطلب ثأرك "

قال عمرو : " وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو ؟"

وكانت الزباء قد اتخذت لحكمها حصنا منيعا ، هو الذي قتلت فيه جذيمة وأخذت ثأرها من قاتل أبيها ، ويحكي الرواة أنها أمرت بجذيمة فلما أحضروه بين يديها ، أمرت أن يفرش له النطع ، ويسقى خمرا ، ثم أمرت بطشت من ذهب ، وقالت لخدمها :

-" قطعوا عروق الذراع، ولا تضربوا رقبته، إكراما للملك – وهي عادة قديمة معمول بها بين الملوك- ..ثم حرصت على ألا تسقط قطرة دم من الطشت ، قائلة :

-" لا تضيعوا دم الملك "

فرد جذيمة : " دعوا دما ضيعه أهله " ومات على تلك الحال ..

أما الزباء فقد نالت ما سعت إليه ، غير أن مزاجها ظل متعكرا بعد أن أخبرتها عرافتها من أنها "ستهلك بسبب غلام مهين" ، وقالت لها :

-" إنك لن تموتي بيده ، ولكن بيدك ".

فأفزعتها النبوءة المشؤومة ، واحتاطت على نفسها ، بل وأرسلت مصورا إلى الحيرة ليصور لها الفتى عمرو بعد أن طابقت أقوال العرافة صفات صاحب الطوق ، وعاد المصور بكل أوصافه حتى إذا رأته الملكة عرفته في الحال.

مضت الأيام وعمرو بن عدي –الذي صار ملكا للحيرة – يعد العدة لغزو تدمر ، متبعا كل نصائح قصير،بعدما جعل من هذا الماكر وزيرا له ، قصير الذي سيعد خطة محكمة شبيهة بخدعة " حصان طروادة " التي حدثت في الزمن الغابر.

فقد خدش أنفه وجرح ظهره ، وادعى أنه طالب لجوء عند الزباء ، هاربا من غدر عمرو ،فلما رأته على تلك الحال ، قالت قولة مشهورة صارت مثالا عن المكر والخديعة :

-" لأمر ما جذع قصير أنفه ".

وقد قالت له بعدما رأته على تلك الحال: " ما الذي أراه بك يا قصير"؟

قال : " زعم عمروا أني غررت خاله ، وزينت له المسير إليك ، ففعل بي ما ترين ، فأقبلت إليك ، وقد عرفت أني لا أكون مع أحد أثقل عليه منك ".

في النهاية انطوت عليها حيلة قصر، ووثقت به الملكة ،وأوكلت له مهمة التجارة وأموال القوافل، وأضحى كبيرا للتجار ، وفي أحد الأيام سيعمل على حشو صناديق بالرجال وحملها على ظهر البعير ، وكان منهم عمرو بن عدي ، ودخل بهم تدمر ذات ليلة هادئة مقمرة .

أسرع قصير إلى قصر الزباء ، يبشرها بقدوم القافلة المحملة بكل الزينة والمتاع ، فلم تفطن للحيلة ، غير أنها لمحت إلى أن في حمل تلك العير شيئا ما ، فأنشدت :

ما للجمال مشيها وئيـــــدا

أجندلا يحملن أم حـــــديدا

فلما دخلت الإبل المدينة ، خرج عمروا وجنده ، فأعملوا السيف في رقاب القوم ، أما الملكة المصدومة فقد حاولت الفرار من الباب الخلفي للقلعة ، فأدركها عمرو صاحب الطوق فعرفته بصورته ، وأدركت أنه قاتلها لا محالة ، فأخرجت سما كان بخاتمها وابتلعته ، قائلة :

-" بيدي لا بيد عمرو ".

وبهذا خلا الجو لعمرو بن عدي الذي شفى غليله ، فقفل راجعا نحو الحيرة عاصمة ملكه ، مؤسسا بذلك أسرة ستشتهر المملكة الفراتية بها وهم :

-" الملوك اللخميين".

كعب أخيل

تقول الأسطورة:

قبل أن يتشكل الكون في صورته التي هو عليها الآن، تصارعت الآلهة في بينها، وقاتل بعضها بعضا حتى النهاية ...كان ذلك القتال المحموم يدور حول من يحكم ويسود،هل هي :

- آلهة الخير؟؟

- أم آلهة الشر؟؟..

هنا تدخل كبير آلهة الإغريق " زيوس" ليفصل بين أبنائه المتصارعين،حيث دعاهم ذات ليلة للحضور عنده.. فكانت الربة " ستيكس" ابنته الصغرى أولى الحاضرات عنده ، لذا كافأها الجبار " زيوس" بأن حولها إلى نهر أزلي.

وهكذا أصبحت الربة ستيكس نهرا متدفقا سماه زيوس"نهر ستيكس".وأضحت طريقا إلى العالم السفلي ، وممرا لعبور الأرواح بعد انفصالها عن الأجساد.

عبدت الطريق المائية نحو عالم الظلمات ، وما على الميت حينها إلا أن يستسلم لقدر الآلهة المحتم... وبذلك تبدأ مراسيم الدفن بأن توضع قطعة نقد معدنية في فم المغادر ، لكي تصل روحه بأمان نحو " هاديس "إله الموت ...هذا الذي نصب منزله على شاطئ نهر ستيكس المقدس،ذاك النهر الفاصل بين الحياة والموت.

كان بيت " هاديس" الجبار يحرسه " سيربيروس " الكلب البشع ذو الثلاثة رؤوس، والذي كلف بحراسة بوابة العالم السفلي حيث مثوى الأموات... هذا المخلوق الشرس، بلا رحمة، مزود ذنبه بأشد الأفاعي فتكا ، مانعا بقوته الخارقة أي روح كانت من الفرار... بالإضافة إلى أنه يقطع الطريق عن الأحياء لكيلا يعبروا البوابة ..وحده البطل " هرقل" استطاع التغلب على الكلب القبيح واقتحام بوابته الأسطورية.

كان على المغادر إلى العالم السفلي أن يوفر قطعة المعدن النفيس إلى ابن الليل ، صاحب المركب الوحيد لعبور النهر ، إنه البخيل الجشع " خارون"..

لا يقبل صاحب المركب أي روح لا تملك قطعة النقود، لكي يعبر بها بأمان نحو مثواها الأخير منزل " إله الموت"...وإلا فستعود تلك الروح إلى أهلها لتنشر الرعب والخراب..إن ذلك البحار العجوز، كئيب الوجه، جلاد لا يرحم، مسلح دوما بمطرقة عملاقة، مستعد على الدوام بأن يقذف بالجسد الذي لا يملك نقودا تنجيه من مصير تعس.

لكن إحدى الأيام ستحمل لخارون هذا خدعة ما كانت له على بال ، بعدما تمكنت حورية البحر الجميلة " تتيس" من أن تتسلل إلى مياه الخلود ، مياه نهر ستيكس المقدسة حتى يتسنى لها أن تغمس ابنها الوحيد " أخيل " في المياه المحروسة بإحكام تام.

وهكذا استطاعت ابنة " غايا " الحورية من أن تصل إلى شاطئ النهر ، في غفلة من الحارس المخيف ، حينها عملت الحورية على غمر جسد ابنها وابن بيلوس ملك " ميرميدون" في المياه المقدسة والمخيفة ، حتى يستطيع هذا الابن أن يصبح من الأبطال الخالدين.

غير أن الحورية لم تشأ أن تترك رضيعها يسبح في النهر بكل حرية خوفا عليه من خارون الشرير ، فأسرعت إلى غطسه في المياه ممسكة إياه من كعبه الأيمن ...كان ذاك خطأها القاتل ، فهذا الكعب غير المغمور بالمياه المقدسة سيصبح في يوم من الأيام بمثابة الباب الذي سيتسلل منه الموت إلى ابنها المصارع أخيلوس .

هذا ما قاله العراف " سيرينيوس" للملك والحورية من أن ابنهما الذي أريد له الخلود ، سيموت بسهم طائش في حرب طروادة الرهيبة... وفي محاولة يائسة لتجنيب أخيل هذا المصير ، أرسلاه إلى جزيرة " سيكاروس" وألبساه ملابس نسائية ليعيش آمنا في قصر ملك الجزيرة .

لكن القدر كان قد حتم على الشاب القوي أن يصبح من أبطال طروادة الأسطوريين بعدما قتل " هكتور" فارس الطرواديين ، كما ساهم في فتح مدينتهم المنيعة والتي استعصت عشر سنين على الغزاة الإغريق ، بعدما تم الأمر بحيلة " الحصان العجيبة" ...

سيتمكن في النهاية " باريس" الأخ الأصغر لهكتور من أن يسدد سهما قاتلا إلى عقب أخيل ، الذي سيسقط مستسلما للموت دون حراك.. هكذا كانت المياه المقدسة لنهر الخلود " ستيكس" سحرا

غمر بطل الميثولوجيا لعشر سنين ، لم يستطع أي محارب أن ينال منه ، إذ يستحيل أن يخترقه الموت في كل جسمه المغمور في مياه "النهر – الربة" ...إلا في ذاك الكعب الذي كان نقطة موته:

***" نقطة ضعف أخيل، هي كعب أخيل".**

حكمة الهندوس

لطالما شكل نهر السند حدا فاصلا بين شبه القارة الهندية وجيرانها الشماليين والغربيين الطامحين في اقتحام الهند بلاد الأساطير العجيبة .ومن أشهر أولئك الفاتحين كان "الإسكندر الكبير" أشهر رجالات التاريخ القديم ، وأكثرهم اندفاعا وعبقرية ومجدا.شاب في قمة فتوته ، قادته طموحاته الجارفة إلى تحدي عجرفة الفرس الإخمينيين ، مندفعا كالريح الهوجاء يعصف بأعدائه واحدا تلو الآخر.

في العام 334 قبل الميلاد خرج ابن فليب بجيش من عاصمة والده " بيلا" بالبلاد المتوحشة مقدونيا عابرا الجزر الأيونية نحو ساحل آسيا الصغرى ، حيث اصطدم مع عدو الإغريق القديم :

*الفرس.

كان ذلك في معركة " غرانيكوس" الشهيرة ، حيث فر " داريوس الثالث" ملك الشرق ، وسقط في المعركة آلاف من جنود إمبراطوريته المترامية الأطراف..بعده سيكتب للإسكندر الشاب عبور الشام ودخول مصر ، حيث التقى مع قدره في واحة" سيوة " وهي فك عقدة من الحبال استحالت على كل من سبقه فكها ، فما كان منه إلا أن استل سيفه وشطرها نصفين ، الأمر الذي جعل كهنة المعبد مصعوقين من الدهشة ..هناك سيضع الفاتح المقدوني الحجر الأساس لبناء أولى المدن التي ستسمى باسمه على ساحل البحر:

-الإسكندرية.

ثم توجه نحو الشرق، حلمه الكبير..وهناك حقق مجده المنشود، أزال من طريقه الإمبراطورية الفارسية ودمجها مع ممتلكاته الشاسعة فيما بات يعرف ب:

-" الحضارة الهلنستية" وجوهرها مزيج بين سحر الشرق وفتوة الغرب..ولم يتبقى للإسكندر إلا اجتياز نهر السند للوصول الى بلاد الهند..تحرك القائد نحو النهر الجبار واستغرق عبوره أياما ، حتى يتمكن جنوده الشجعان من التغلب على التيار الجارف ، وبرودة مياه النهر التي جمدت الكثير منهم.كانت هاته هي المحنة الأولى التي تجرعها جيش الإسكندر المقدوني بعدما تجرأ على عبور النهر الجامح:

- نهر السند الكبير.

وما ان اجتاز الفاتح القديم المياه الهادرة حتى وجد أمامه جيشا جرارا ، تتقدمه مدرعات ذاك الزمان:

-" الفيلة الهندية المدربة"...يقودها خبراء الرماة من جيش الهنوس ، هناك على روافد السند دارت معركة حامية الوطيس ، تطلب النصر فيها سقوط مئات القتلى من جيش الإسكندر المتعب من جراء آلاف الأميال التي قطعها،واقتضت من القائد الفذ توجيه رمحه مباشرة الى عدوه " ملك الهند" إذ هاجمه الإسكندر بشكل خاطف الأمر الذي باغت هذا الملك وفر هاربا من أرض المعركة ليتبعه جيشه وتحل بهم الهزيمة.

وهكذا كانت مدينة " هيداسبيس" أولى غنائم الإسكندر حيث أطلق الفاتح المقدوني العنان لجيشه الجشع لنهب المدينة بالكامل..فنشوة النصر جعلت هذا القائد الكبير يخرج عن حكمة معلمه " أرسطو" حينما كان يوصيه بالتروي والتعقل ، وهذا ما سيذكره به أحد حكماء المدينة المنهوبة..يخترق الإسكندر شوارع المدينة ، شاهرا سيفه إلى أعلى ، ويصيح بكلمات النصر:

-المجد للإسكندر.

-النصر لمقدونيا.

وهو على هاته الحال ، إذ به يمر بالقرب من إحدى الأشجار المنتصبة على الطريق ، فيلمح شيخا عجوزا يتكئ على جذع شجرة ويغط في نوم عميق، غير مبال لما يدور من أحداث قد قلبت مصير مدينته ، ولربما الهند بأكملها.

فما كان من ابن فليب المتوحش إلا أن نزل من على حصانه " بوسيفالوس" ولطم الشيخ النائم برجله ، قائلا له :

-" قم أيها العجوز....ألا تعرف من أنا؟؟"

-" أنا الإسكندر ، وقد فتحت مدينتك".

رد الشيخ الوقور ، وقد استوى جالسا:

-" بلى ، إن فتح المدن من شيم الملوك ، لكن الرفس بالأرجل من شيم البغال".
تلك حكمة بالغة ما كانت للإسكندر على بال ، بعدما عبر هذا القائد الكبير آلاف الأميال شرقا حتى وجد الحكمة هناك ببلاد النهر المقدس.

لوريلي الشقراء

حورية ماء فاتنة ذات جمال خلاب، وشعر طويل أشقر، كان هذا الشعر هو سبب شهرتها، ومصدر لرعبها الذي بثته على طول مجرى النهر السريع الجريان.

ومما تحكيه الأسطورة عن حورية الراين هاته أنها كانت تتخذ من جبل "لوريلي" هذا الذي منح الفتاة لقبها ، أو أنها باتخاذها الجبل الشاهق مستقرا لها قد منحته اسمه الذي عرف به ..المهم أن الجبل والحورية صارا معا مصدرا للرهبة لدى التجار العابرين للنهر ذي الفروع الثلاثة.

كانت الحورية لوريلي تنظر مطولا إلى القوارب العابرة ، مسدلة شعرها الذهبي أمامها ، ومبدية شكلها السفلي الغريب ، هذا الذي يجعل البحارة مشدوهين أمام منظرها الرهيب ذاك ، فيغفلون عن توجيه مراكبهم والتي تقودهم نحو مكان حورية النهر ، تلك التي تعمد إلى القضاء عليهم ، ثم تخفي أسرارهم داخل مياه الراين الغامضة ..

تبدأ حكاية الشقراء لورلي في زمن غزوات الشعوب الجرمانية لنهر الراين ، أفواج لا تحصى من مراكب هؤلاء الجرمان المتوحشين ، طويلي القامة ، شقر الشعر، يحملون على أعناقهم فؤوسا يشقون بها جماجم أعداءهم بلا أدنى رحمة ، ثم ما يلبثوا أن يحتسوا الخمر في طقوس وثنية ، جاعلين من جماجم ضحاياهم كؤوس الشراب حتى نعتهم خصومهم بالبرابرة.

كانت تلك الغزوات المتلاحقة قد ألجأت روما وجنودها وراء نهر الراين ، ثم أوصى الأباطرة الروم ببناء جدار عازل على طول مجرى النهر الفاصل، وفي هاته الظروف المتسمة بالصراع بين الرومان والجرمان ولدت فتاتنا الشقراء لوريلي من أبوين ينتميان لإحدى قبائل الجرمان التي اتخذت من ضفاف الراين موطنا جديدا لها .

وقد صادف أن كانت الفتاة الجميلة تخرج بشكل دائم نحو النهر لتستمتع بخرير المياه العذبة المتدفقة ، ولتنصت لزقزقات عصافير الغابة المحيطة بالنهر الجميل ، وذات يوم صادفت دورية من الجنود الرومان تحرس حدود الليمس،كانوا على مركب صغير وكان ضمن المفرزة شاب جميل المحيى ، تبادل هو والفتاة نظرات الإعجاب دون كلام ، تلك النظرات التي تحولت في موعد قادم إلى لقاء بعدما ترجل الفتى واقترب من لوريلي حيث عبر كل واحد منهما على إعجابه بالآخر.

مرت الأيام سعيدة بين العشيقين إلى أن اختفى الفتى الروماني ولم يعثر له على أثر بعدها، فانتظرته لوريلي طويلا آملة في عودته لكنه لم يعد ، فحزنت حزنا شديدا ، ثم ما لبثت أن عرفت أخباره من رفاقه الجنود حينها ستعلم أنه تخلى عنها وتزوج امرأة من أشراف الروم ، هذا الذي جعل الفتاة الجرمانية تصاب بصدمة عمرها ، ثم ما لبثت أن حولت حزنها إلى غضب ساطع

سيحرق كل من دخل في شركها من الرومان.وقد أجج من غيظها وحنقها عودة الصراع بين جنود الليمس من الرومان وأهالي الراين من الجرمان.

فكرت لوريلي في خطة شيطانية تستدرج بها البحارة أو الجنود إلى مكان تستطيع بعدها القضاء عليهم.وهكذا أضحت كل صباح تصعد أعلى الجبل القريب من قريتها مستعينة بشعرها الذهبي الساحر الذي جعلته طعما للبحارة ، وحينما تظهر مفاتنها لهم تبدأ في الغناء بصوت عذب ، ولما يبصرها هؤلاء يقفون مشدوهين منبهرين فتسرع بهم قواربهم أسفل الجبل وقد ترتطم بالصخور دون أن يشعروا ولحظتها تسرع لوريلي لقذف الحجارة نحو رؤوسهم فيكون ضحاياها بين نارين :

-الغرق، أو تهشم رؤوسهم بالصخور الساقطة من عل.وهكذا فإن حورية النهر تحولت إلى شبح مخيف لكل البحارة الرومان.

لا زالت لوريلي تعيش في مخيلة قاطني الراين ، حاضرة بشعرها الطويل في رسوماتهم وأشعارهم وحكاياتهم ، وهاهي التماثيل مشيدة في كثير من محطات النهر باسمها ، ودمى بلاستيكية تتسمى باسمها ، ولوحات فنية تخلد لذكراها من قبيل "لوحة لوريلي "للرسام ولهام كيري.. و لوحة " ماكوب ستانلي ".

كما خلد الشعراء قصائد طوال تتغنى بأسطورة فتاة الراين الشقراء ، يقول الشاعر الألماني هاينز هاينة :

لست أدري أنني هكذا حزين.

أسطورة من قديم الزمن صداها في الفؤاد ثمين.

هواء بارد، والراين يجري في صفاء

وعلى قمة الرأس شعر بلون أرجواني من حاضر السماء

تلك أم حسناء جالسة تبدي الجمال تدنو من عل

أسوارها من النضار لامعة وشعرها ذهبي مرسل.

ولعل أروع ما قيل من أشعار في حورية النهر الغامضة ، تلك الكلمات التي خطتها أنامل الشاعر الرومانسي كليمنس فون حيث ينشد :

عند الراين عاشت بنت ذات جمال ساحر

أخذت القلوب ، وسلبت المشاعـر

ولم ينجو من أفعالها إلا القليل النادر..

دودة القز

في أحد الأيام خرج ملك الصين الشاب"هوانغ -دي" ليتفقد الكهوف التي كان قد ألزم فيها قبيلة الإمبراطور الأحمر على اتخاذها مسكنا لهم، إذ به يلمح فتاة نحيفة الجسم ،لها قدر من الجمال الظاهر وقد اتخذت لها كهفا تأوي إليه.

ونظرا لأن الإمبراطور كان متنكرا ، لم تتعرف عليه الفتاة القروية التي أسرعت نحو كهفها الصغير فما كان منه إلا أن انتظر خروجها الذي طال حتى قاربت الشمس على المغيب ، حيث رصد لها الملك جانب الكهف بعدما استغرب من حالها .

ولما أيقنت الفتاة أن الرجل المترصد لها قد اختفى حملت جرة ماء ملونة مصنوعة من الخزف،ثم انحدرت القروية نحو النهر لتملأ جرتها ، هناك استوقفها الشاب المتنكر ، ملحا عليها أن تحكي له عن سبب وجودها وحيدة دون أسرة.بعدها حكت له قصة مصرع أهلها بسبب الحروب بين الإمبراطورين الأحمر والأصفر ، وبعدما بدا التأثر واضحا على الملك الشاب ، ختمت الفتاة حكايتها بنبوءة كانت تحكيها لها جدتها وهي بعد صغيرة :" إنك ستعيشين وحيدة، إلى اليوم الذي سيختارك الملكة زوجة له "..

ابتسمت الفتاة القروية ساكنة الكهوف وأتمت كلامها بسخرية :" وها أنا أعيش وحيدة ، وما رأيت تحقق نبوءة الجدة إلا في عيشي وحيدة ."

رد عليها الشاب المتنكر:

-" ربما لو لم تكن جدتك قد أخبرتك بزواجك للملك، لكنت طلبت يدك ".

ثم ودعها مبتسما ملوحا لها بيده ....أما هي فقد انتصبت مشدوهة من انفلات لسانها ، وسرد حكايتها التي أوصتها جدتها بأن لا تحكيها إلا للملك نفسه وإلا ستصيبها لعنة تمسخها :

*" دودة قز عملاقة ".

ولما عادت إلى كهفها البسيط، لم تستطع النوم ليلتها تلك، وارتعبت من الكوابيس التي كانت تصور لها نفسها وقد تحولت بالفعل إلى دودة ضخمة تزحف في الكهف.ولم تنتبه الفتاة اليتيمة ، وكانت تدعى " ليتزو" عند الصباح إلا وجاريتين على باب المغارة ، تناديان عليها للخروج:

-" أيتها الفتاة ، نحن وصيفات الملك ، وهو يطلبك إلى قصره ".

خرجت " فتاة الكهف " غير مصدقة ما سمعت أذناها ، وإن تأكدت من صدق الفتاتين بحكم الزي الموحد الذي ترتديانه، فما كان منهما إلا أن قدما للفتاة ملابس تصلح للقاء المرتقب ، حيث طلبت " ليتزو" من الوصيفات أن يدخلا إلى كهفها ليعيناها في ارتداء هاته الملابس ذات الأكمام الواسعة .

وما هي إلا أن دخلت الفتاة اليتيمة إلى قصر الملك الأصفر ، ولم تلبث " ليتزو" أن تعرفت على الملك، فلم يكن بالنسبة لها سوى ذاك الشاب المتنكر الذي قابلته عند مجرى النهر.

أقيمت طقوس الزواج، وعاش القصر على وقع الأفراح والمسرات، وتحقق بموجب ذاك الزواج نتيجة هامة:

-فقد اتحدت قبيلتا الإمبراطور الأصفر والأحمر، التي تنتمي لها تلك الفتاة التي أضحت سيدة الصين بلا منازع، وقد سعت الملكة بعد ذلك في تحويل حقد قبيلتها على الإمبراطور إلى ولاء دائم ..وبهذا الزواج ستتحد أولى ممالك الصين على ضفاق النهر الأصفر الخصيب.

يحكي الرواة أن هذا الإتحاد سيقود المملكة الوسطى نحو بوادر أولى الحضارات بالشرق الأقصى..فالإمبراطور الأصفر كان رجل دولة بامتياز ، علم شعبه كيفية صنع الأسلحة لحماية المملكة المتحدة ، واتخذ من " داناو " وزيره الذي سيضع التقويم السنوي الصيني ، أما مؤرخ القصر " كانججي " فهو أول من أنشأ نظام الكتابة الصينية .

قال الملك لزوجته يوما ، لما لمحها مهمومة :

-" لقد تحققت نبوءة جدتك التي أخبرتني بها..ولولاها لما كان هذا الزواج ".

ردت الملكة :

-" حقا ما قلت يا جلالة الملك، غير أني مازلت في حيرة من مسألة حضور دودة القز في تلك النبوءة الغامضة ؟؟".

أجاب الملك :

-" ربما أن للأمر لغز ما ، وقد تفيدنا ملاحظة الحشرة عن قرب في العثور على على سر ذكرها في النبوءة".

جعل كلام الإمبراطور فتاة الكهوف السابقة تعمل على اتخاذ حديقة صغيرة في قصرها، وضعت فيها بضع دودات القز، وظلت تراقبهم من حين لآخر..وحدث في يوم من أيام المراقبة، أن لمحت الملكة شيئا عجيبا :

." سائل أبيض لامع يخرج من فم الدودة ، ثم يتحول إلى خيوط حرير صلبة"...

طلبت " الإمبراطورة ليتزو" من إحدى جارياتها أن تخبر الملك بتعجيل الحضور إليها بأقصى سرعة ممكنة..ولما قدم الإمبراطور أخبرته بهذا الاكتشاف المذهل الذي سيطبع تاريخ الصين، كبلد:

-" الحرير الأقدم في العالم".

ستعمل الإمبراطورة " ليتزو" على تعليم نساء القصر كيفية تربية " دودة القز" ونسج الحرير ، وصباغة الملابس ، حتى أطلق على فتاة المغارة السابقة لقب:

*" إمبراطورة الحرير الأولى "

وقد عثر مؤخرا على آبار قديمة في منطقة لويانج تضم أشكال لدودة القز ، وأواني الفخار ، الأمر الذي يثبت وجود النسيج هناك على روافد النهر الأصفر العليا.

وهكذا أكملت " فتاة الكهف " تحقيق نبوءة جدتها ، مكتشفة بذكائها طريقة صناعة الحرير ، رمز الحضارة الصينية العريقة ، معطية بذلك إشارة الانطلاق الأولى لما بات يعرف ب:

-طريق الحرير الأسطوري.

السيدة بكتاو

ابنة نهر النيجر ، والأم الروحية لمدينة تومبوكتو، التي تلتف عليها المياه لتنعش زوارها الطوارق القادمين من جحيم الصحراء الشاسعة.. تحكي الروايات المتتبعة لقصة المرأة النيجيرية أنها انتقلت إلى بيت زوجها ، وهي لم تتجاوز العقدين ، بعدما زفت بحفل بسيط ، تخللته رقصات شعبية للزنوج على إيقاع الطبول المصنوعة من جلود الماعز ، تلك القطعان المنتشرة على طول مجرى نهر النيجر ، حينما يخترق جوف الصحراء.

عاشت السيدة بكتاو حياة هانئة مع زوجها الطوارقي ، هذا الذي كان يتاجر بالملح مع مدينة "تغزى" التي تبتعد عن مقر سكناه بمسيرة أيام وليالي طويلة.

لم تنجب السيدة بكتاو أولادا ، فقد شاع أنها عاقر ، غير أن زوجها كان يحبها ، ويحترم الرباط المقدس الذي يجمعه بها ،فلم يفارقها لذاك السبب الذي يهجر به الأزواج زوجاتهم.وهكذا كانت السيدة النيجيرية تحفظ غيبة زوجها حتى يعود مع الركب ،وهي القافلة المكونة من التجار الطوارق بالخصوص.

وكثيرا ما كانت القافلة تنزل معززة مكرمة في بيت السيدة بكتاو لوقوعه قرب النهر ، وعلى مشارف الطريق ،فيترك هؤلاء عندها ودائعهم ،ولما شارفت السيدة الأمينة على عمر الخمسين حدث أن سافر زوجها بتجارة جديدة نحو مدينة الملح "تغزى" كعادته ،غير أن هاته المرة كان قد تأخر في خروجه مع القافلة بيوم واحد لمرض مفاجئ ألم به ،وعلى الرغم من إلحاح بكتاو عليه بالمكوث ، إلا أن شعر في الغد بتحسن كبير جعله يهم الالتحاق بركب القافلة.. كان ذلك الخروج آخر عهد للسيدة بكتاو بزوجها ، فلا هو أدرك الركب ، ولا هو عاد للبيت ، انقطعن أخباره كأنما ابتلعته رمال الصحراء.

-وهل ذلك غريب على هذه الأرض !!

الجواب لا طبعا ، فكثير من القوافل انتهى مصيرها مطمورة أسفل كثبان الرمال المتحركة ،بل إن أدلاء القوافل يعثرون دائما على جماجم بشرية قد عصفت بها الريح في مكان سحيق ،كم هي قاتلة تلك الرمال التي تطبع تخوم الصحراء بطابع الموت الساكن ؟

ربما كان زوج السيدة بكتاو يهم الالتحاق برفاقه ، فعاوده المرض الذي أثقل جسمه العليل حتى سلمه لعدو آخر لا يقل عنه فتكا :

-إنه العطش.

ولعل القصة التي حكاها الحسن الوزان حول الشاهدان لخير دليل على هلاك عدد لا يحصى من عابري الصحراء، وهم يقضون عطشا، بعدما جفت لديهم قرب الماء، هناك في جحيم الصحراء..

كل تلك الاحتمالات كان قد سردها أصحاب قافلة الملح أمام أعين السيدة النيجيرية، التي كانت تنصت والدموع تغزو عينيها، دون أن تفقد الأمل في عودة زوجها يوما ما.

تكلم تاجر آخر كان ضمن الركب وطرح احتمالا ثالثا أكثر شؤما، حينما ذكر إمكانية تعرض وحوش الصحراء للرجل الأعزل والفتك به..ولعمري إن هذا الأمر كان شائعا حتى في وجود القافلة مجتمعة فقد قص الرجل حكاية عن هلاك قافلة يعرف أصحابها ، كانوا خمسة عشر رجلا حينما هاجمهم قطيع من الضباع المفترسة ليلا ، وهم نائمون في أمان ، فما بالك برجل واحد يسير وسط أرض لا تدرك من أين يدهمك الموت فيها ؟

كانت السيدة بكتاو تنصت لرفاق زوجها وهي صامتة ، صابرة محتسبة ، تتسلح بأمل رجوع زوجها ، ولسوف تظل على تلكم الحال حتى حنت ساعة رحيلها ، وتوارى الثرى دون أن تفقد خيط الأمل ذاك.

لكن المنية تأخرت بالمرأة النيجيرية حتى عمرت طويلا ، متجاوزة القرن من عمرها بقليل ، مفضلة البقاء في بيت زوجها منذ أن جاءها التجار بالخبر المفجع.

يحكي أحد الذين حضروا ذلك اللقاء أن زعيم القافلة كان قد ترك قبل خروج الركب عند زوج السيدة بكتاو أمانة ، عبارة عن ثمانية جرار مملوءة ذهبا ، وكانت المرأة تعلم بالمكان الذي وضع زوجها فيه الوديعة ، فلم تتأخر السيدة بكتاو في تقديم الجرار إلى صاحبها دون أن تنقص منه شيئا ، هذا الذي جعل التجار يعجبون بأمانة السيدة ، فقد كان يكفيها أن تقول كلمة واحدة ، تجعل منها سيدة فاحشة الثراء ، هي أن تنطق أنها :

-لا تعلم عن الأمر شيئا.

لكن السيدة بكتاو ليست من تلك الطينة ، فقد عاشت حميدة وماتت كريمة ، تروي الحكايات أن سيد القافلة عاد مع وفد من كبار التجار ، لما أتمت بنت النيجر عدتها ، جاء خاطبا يدها ، لكنها ردته ردا جميلا ، مصرة على أن تحتفظ بأمل عودة زوجها يوما ما، حتى ولو كان بعيدا.

هذا الذي ازدادت بفضله السيدة بكتاو مكانة لدى التاجر الموسر ، فوهبها قسطا من المال ، اشترت به عنيزات ، وجاموستين ، وما لبثت أن كثرت ماشيتها ، وهبت عليها الهدايا التي أضحت تحصل عليها بعدما قصد التجار بيتها الذي أضحى مكانا لودائعهم ، ومستودعا لبضائعهم ، حينما شاع أن :

-الأمانة ولدت هنا ، في بيت تن -بكتاو ، سيدة الطوارق بلا منازع.

تلك كانت الإرهاصات الأولى للموضع الذي ستنشأ فيه المدينة الطينية ، والتي ستحمل اسم سيدة الأمانة بكتاو ، زوجة التاجر المختفي..وهكذا ولدت مدينة النهر العظيم،بدأت ببيت من الطين

لسيدة عجوز اتصفت بالأمانة لدى الطوارق ، حتى سكن قربها الكثير من التجار الرحل، وجعلوا من جوارها موطنا جديدا لهم. كان ذاك بعدما أحبوا مجاورة العجوز المسنة لخصلة الأمانة التي عرفت بها بينهم..في النهاية ماتت السيدة بكتاو وولدت الأسطورة ، أسطورة مدينة غامضة غموض الحال التي آل إليها زوج سيدة الأمانات..

-حكاية مدينة يحتضنها نهر النيجر العظيم ، يخترقها دون أن تمنع هي مروره.

-قصة مدينة نشأت كمركز تجاري للقوافل الصحراوية العابرة على مجرى الزمن ، أو مجرى النهر الكبير ، نهر الصحراء الخالد.

إنه النهر الذي يفضل أن يغير شكله حتى ينحني ظهره احتراما لمرقد السيدة بكتاو ، تراه وقد التف على شكل هلال حينما يحتضن تومبوكتو الجميلة ، ربما في انحناءته تلك يقدم لسيدة الأمانة التحية التي تستحقها ،ويسقي قبرها الذي هو بيتها الأصلي ، ذاك الذي لم تغادره منذ اختفاء زوجها ، وهي في منتصف عمرها.

يدعي عدد كبير من أهالي نهر الأنهر ، النيجر العظيم وحالما يغادر تومبوكتو تعلوه مسحة حزن على فراق معشوقته، وتميل حينها مياهه نحو لون السواد ..بل إن البعض يتجاوز هذا كله ، ويدعي أن الأسماك تقل في النهر حالما يرحل عن المدينة المباركة.

الأمازونات

تبدأ قصتنا التي سنسرد أحداثها العجيبة حينما لمح المغامر " فرانسسكو" من على قاربه نسوة نصف عاريات إلا من جلود نمور الجاكوار التي تخفي نصفهن الأسفل ، وقد اصطففن على الضفة المقابلة لذاك النهر المتسع ما بين ضفتيه لمئات الأمتار"نهر الأمازون الجبار" .. بدا للمغامر الإسباني أنهن مسلحات بالأقواس والنبال تتدلى شعورهن الطويلة الشديدة السواد على أثدائهن الشبه مكشوفة... للوهلة الأولى صاح " دي أوريانا" بصوت عال مخاطبا رفاقه :
-أمازونات.. أمازونات.

الأمر الذي أضحك مرافقيه المسلحين بالبنادق، هذا السلاح الفتاك حتما لن يقف أمامه أسن حراب المحاربات قيد أنملة.قال" فرانسسكو" لرفاقه :

-" إن تلكم النسوة قد ذكرني شكلهن بأمازونات الأساطير الإغريقية ، وإن هذا النهر الذي سنكتشفه سأسميه مجازا باسمهن:

-نهر الأمازونات .

شق المستكشف الأيبيري مياه النهر قاصدا اتجاه النسوة المحاربات ، وسرعان ما دارت معركة بين الغرباء وتلكم النسوة التي بدا أن اللقب الذي أطلق عليهن لم يأتي عبثا، فشدة المواجهة التي قابلن بها الرجال بدا وكأنهن فعلا سليلات "أمازونات اليونان القديمة".

دون مقدمات نشبت مواجهة عنيفة بعد أن لاحظ هؤلاء البحارة المتعطشين للذهب ، تلكم النسوة يرتدين قلادات صفراء تلمع مع نور الشمس الساطع.. وما هي إلا أن نزل القائد " دي أوريانا " ومعاونيه متجهين نحو النسوة مصوبين بنادقهم نحوهن ، لكن المحاربات سرعان ما دخلن في المواجهة ، يرمين بنبالهن حناجر رجال المغامر الإسباني ،وقد استفدن بشكل جيد من كثافة الأدغال للاختباء ، يسددن بذلك الرماح المصنوعة من عظام الطيور و الحيوانات بدقة عالية.

سقط عدد من رجال " فرانسسكو" مابين قتيل وجريح ، أما بنادق الغزاة فقد شرعت تحصد كل من كان أمامهن من النسوة المقاتلات ، أما الناجيات منهن فقد اختفين في عمق الغابة ولم يعثر لهن على أثر بعدها.. وحدها إحدى تلكم النساء تمكن " دي أوريانا " من القبض عليها بعدما

فقدت توازنها وسقطت من إحدى الأشجار التي اختبأت فوقها ، فانقض عليها البحارة المغامرون وكبلوا يديها ،وقد منعوها الفرار.

أمر القائد " دي أوريانا " بعدم الاجهاز على الفتاة المحاربة ، فقد تكون البعثة الاستكشافية في حاجة إليها ، لكن جشع المغامرين كان يتطلب منهم إرغام " الأمازونة الصغيرة " على أن تدلهم على مكان الذهب ، ولربما قادتهم نحو المدينة الغامضة التي قامت الرحلة من أجل العثور عليها.

وقد تعلم هؤلاء الغزاة الكثير من الإشارات التواصلية التي كان الهنود يستخدمونها ، بعد أن مضى على تواجدهم بالقارة العذراء ما يقارب القرن من الزمن ، لذا أصر القائد الإسباني على إجبار الفتاة الهندية على الكلام تحت التهديد والضرب الشديد.

قادتهم " أورورا" الأمازونة المحاربة بعيدا نحو عمق الغابة الإستوائية الكثيفة ، لتخترق بهم الأشجار المتشابكة الملتفة حول النهر العظيم ، كانت توهمهم أنها ستوصلهم ولا شك إلى " المدينة الذهبية ".. استمر المسير طيلة اليوم تقريبا ، وما أن أوشك قرص الشمس أن يحمر معلنا عن مغيب يوم رهيب في حياة المحاربات ، حتى لاح للمغامرين مدخل سري بين الأدغال الخضراء ، ظنه " فرانسيسكو دي أوريانا" أنه باب مدينة الكنوز ، فبدت منه ومن نواجد رفاقه ابتسامات خبيثة ، قابلتها " أورورا" بالمثل.

ولما أن دخل البحارة إلى الداخل ، لم يجدوا إلا نسوة نصف عاريات شبيهات بالنساء التي حاربن رفاق " دي أوريانا" في الصباح... وبخفة أشارت إليهم " أورورا" بعدم التحرك وابتسمت في وجه جلاديها ، مشيرة لهم بالجلوس. ثم اتجهت نحو الزعيمة المحاربة التي كانت تجلس على كرسي مزين بريش الطاووس، وجلود النمر المرقط ... همهمت الفتاة المحاربة للزعيمة بكلمات سرية تخبرها بأن هؤلاء الرجال يملكون سلاحا قاتلا ، لذا وجب التفكير في خطة أخرى غير الهجوم عليهم.

قضى المغامرون ليلتهم هناك ، وهم متشحون ببنادقهم تخوفا من أي هجوم محتمل ، أما النسوة المحاربات فقد كن يرقصن غير مباليات بالغرباء ، بل واتبعن خطة " أورورا" وأدين واجب الضيافة من طعام وشراب ، بل والمعاشرة لمن رغب من هؤلاء البحارة الشجعان.

وفي الصباح أمر " فرانسسكو " بأن ترافقه ثلاث نسوة من بينهن " الفتاة أوروراً" قصد الإستمرار في البحث عن هدفه ، بعدما قدمت له المحاربة الصغيرة شروحا عن موقع " المدينة الحلم" الإلـدورادو ..وأن مكانها على نقطة التقاء شلال شاهق مع بحيرة مقدسة ، تدعى :

-" حوض إلهة الماء"

بعد مسيرة أشهر على طول مجرى مياه النهر الزرقاء ، قادت خلالها " أوروراً" البحارة الجشعون إلى مدخل كهف عميق جانب الشلال الأبيض الذي كانت مياهه الساقطة من أعلى تصدر أصواتا مخيفة تتناغم مع أصوات كائنات الغابة التي لا تهدأ..ثم أشارت " أوروراً" لرفاق المغامر الإسباني بالتقدم بحذر شديد ، مشيرة لهم أن المكان يحرسه كبير الجن ، وأن النسوة محرم عليهن الدخول ، لذا ستبقى المحاربات الثلاث عند مدخل الكهف يراقبهن اثنان من البحارة. وما إن اقتحم " دي أوريانا" الكهف حتى اندهش مما رأت عيناه :

-" بريق ولمعان يبهر العيون، يشع من داخل المغارة التي كان يحرسها رجلان قويان كأشد ما تكون القوة ، مسلحين برمحين حادين...بدا أن الحارسين قد فاجأهما الغرباء ، وما إن حاولا غرز حربتيهما في جسد المهاجمين حتى كان رفاق المغامر الإسباني قد حصدوهم ببنادقهم ، فتحولا إلى جسدين بلا حراك.

ساعتها أسرع البحارة إلى الداخل ، ملئوا أيديهم وأكياسا كانت معهم من الجواهر الثمينة ، ذهب وألماس ..فضة ونحاس...كنوز أسالت لعاب المغامرين وجعلتهم كالمجانين ينهبون كا ما لمحته أعينهم المحملقة.. كانوا يدركون أن بقائهم لمدة أطول يعرضهم لخطر ماحق ، فسرعان ما سيأتي أحد ما لتفقد الحارسين فتقع الكارثة.

حمل " دي أوريانا " ورفاقه ما قدروا عليه ، ثم ركبوا قواربهم الثلاثة وأسرعوا مجذفين نحو كيتو البعيدة، كان لابد لهم أن يمروا من طريق أكواخ النسوة المحاربات ، لإرجاع " أوروراً ورفيقتيها" حسب الاتفاق الذي عقده القائد الإسباني وملكة " الأمـازونات" والذي يقتضي ب:

- -إرجاع النسوة الثلاث بعد أن يساعدن المغامرين في الوصول إلى الكنز المخفي بين الأدغال.

غير أن نوايا " دي أوريانا " لم تكن تشي بذلك ، وعينيه كانتا تصدران نظرات مكر ، تنمان عن نية مبيتة في نقض الاتفاق ، والذهاب بالنسوة المحاربات كغنائم رفقة كنوز الكهف... وقد كانت " أورورا " تدرك غدر هؤلاء البحارة القساة ، لذا لم تخبرهم بقصة الكنز الحقيقية.

كانت النسوة الهنديات تعرفن مكان هذا الكنز من زمن بعيد ، لكنهن لم يجرؤن على اقتحام المغارة أبدا ، لاعتقادهن أن " الأرواح الشريرة " تحرسه ، وأن الجني الذي يراقبه سيقضي على كل امرأة تحاول الاقتحام .. ورثوا ذلك من عرافتهم الأولى التي كانت قبل وفاتها قد كتبت وصية للأمازونات الهنديات بعدم المخاطرة بأرواحهن إلا إذا رافقهن أحد من الرجال.

وبحكم أن تلكم النسوة لم يكن بينهن أي رجل ، فقد لاحت لهن هاته الفرصة الذهبية حين ظهور المغامرين الإسبان ، وعلى الرغم من ارتكاب رفاق " دي أوريانا" لكل ذلك العنف عند اصطدامهم الأول مع النسوة الهنديات ، إلا أن الفتاة المحاربة تمكنت أن تقنع ملكتها بتأجيل الثأر من أولئك الأوغاد ، وتوظيفهم أولا في استخراج الكنوز ، ثم القضاء عليهم بكل قسوة حينما تتاح أول فرصة. لذا وكلت هاته المهمة الخطيرة إلى " أورورا" ورفيقتيها .

كانت الرياح رحيمة هاته المرة بالكابتن " فرانسسكو" ورفاقه ، بأن ساهمت بعودتهم السريعة نحو الديار ، ولما شعرت الفتاة المحاربة باقتراب المراكب الثلاثة من منازل قبيلتها ، سارعت إلى توجيه سوارها المعدني نحو أشعة الشمس ومن تمة ضبطه جهة الشمس لينعكس على عمود كانت تنتصب فوقه مرآة عاكسة ..وهي إشارة كانت " أورورا " قد اتفقت عليها مع النسوة الأمـــازونات ، حتى يكن على أتم الاستعداد لاعتراض البحارة الغرباء.

على أن "أورورا الذكية" أعدت خطتها الشيطانية مسبقا ، بعد أن أخرجت من ظفائر شعرها وريقات لنبتة " رافراكتا السامة "..هذه النبتة التي تنموا في مملكة النسوة المحاربات ، باتت عندهن السلاح السري القاتل لأعدائهم ، فهن يعرفن دون غيرهم قدرتها على الفتك بدم بارد ، خاصة إن كان الصنف المستهدف هو :

-الرجل البغيض.

بخفة سحرية صبت " أورورا"جزءا من تلك النبتة اللعينة في جرة خمر دون أن تثير انتباه البحارة الذين بدا أنهم قد تأثروا بشمس الأمازون الحارقة ، كما أن تصرفات النسوة الثلاث قد جذبت الثقة لرفاق المغامر الإسباني.

وما هي إلا سويعات حتى بدأ مفعول النبتة القاتلة يسري في جسم المغامرين ، حيث أن الفتاة المحاربة كانت تعرف مسبقا أن علامات تأثير السم يبدأ أولا على شكل هلوسات وصراخ ، ثم يضعف الجسم المخدر ، بعدها الموت المحتم.

كان " فرانسسكو دي أوريانا " أول الذين سقطوا صرعى بحكم أنه كان أول من ارتوى لمكانته القيادية، ثم بعدها سيتهاوى رفاقه الواحد تلو الآخر كأوراق الخريف الصفراء.

لم تمهل الفتيات المحاربات الغزاة الإسبان حتي سيتسلموا للموت المحتم ، بل رحن يطعن البحارة في الصدور والأعناق والبطون ، وامتزج الصراخ بنشوة الانتقام ، ولكأنهن قد استعرن بعضا مما عرف عن أمازونات الإغريق من كراهية سوداء للرجل ، كل تلك القسوة كانت الفتيات الهنديات قد خبأنها ليظهرنها فجأة فوق مراكب الموت تلك.

سيصبح ـ دي أوريانا" ورفاقه قريبا طعاما سهلا لتماسيح النهر الكبير ، بعد أن تم تجريدهم من الحلي التي تزينوا بها ...فبإلقائهم في مياه النهر سيكون السير أخف للمحاربات ، والرجوع إلى الديار سالمات غانمات .. منتقمات.

كشف النهر عن صدق ما نطق به المستكشف الإسباني " فرانسسكو دي أوريانا" الذي أسماه نهرر الأمازونات... إنهن النسوة المتصفات بالقسوة ، وكره أعمى للرجال ، محاربات لا يخشين عدوا ، ولا يهبن قتالا .

لم يكن المغامر الإسباني يدرك أنه بمجرد رؤيته للنسوة المحاربات، أن قسوتهن ستطاله أكثر من رفاقه ، بعد أن احتفظ بجثمانه معلقا في مدخل بيت القربان الذي كان منتصبا قرب أكواخ النسوة الهنديات ، هناك وسط الغابة العظمى التي ستحمل هي أيضا اسم النهر الكبير.

في أواخر كانون الأول من العام المسيحي 1546م ، كانت شمعة الحياة الخاصة بالمستكشف الكبير " فرانسسكو دي أوريانا "تنطفئ على مياه النهر الذي أطلق عليه اسم النساء المحاربات ، بعدما تشابهت لديه ملامح هنديات أمريكا بأمازونات هوميروس اليونان القديمة.

ولم يكن يدري ساعة أطلق مقارنته تلك ، أنه وعلى الرغم من حاجز طوله آلاف الأميال التي تفصل بين موطن الأمـازونات حيث نشأن ، وبين شبيهاتهن في الطرف الآخر من الدنيا ...أنهن متشابهات في كره الرجال ، تشابها يصل حد :"التطابق"..

* عناق الحرية:

ولد ابن النهر "آداما كامارا" في العام 1770 للميلاد، فتى أسمر بعضلات مفتولة وأنف أفطس،شب كأقرانه على ضفاف نهر السنغال،يرعى القطعان ويصيد أسماك النهر..وذات يوم حينما كان يخرج كعادته للصيد ففوجئ يومها بالقناصة النخاسون الذي انقضوا عليه رفقة أسماكه فاقتادوه إلى سان لويس، ثم إلى جزيرة غوري حيث احتجزوه في أسوأ حجرات "بيت العبيد" نظير العصيان الذي بدت عليه نفسه الأبية بعد إلقاء القبض عليه.

كان آداما ذا نفس شماء، ترفض الخنوع والاستسلام، ربما كانت ثقافته الإسلامية تدفعه ألا يبدي العبودية إلا لخالقه،وذلك كان دافعا روحيا لانعتاقه من الأغلال فيما بعد..وبعد أن قضى كامارا سنة كاملة رهن الاحتجاز، قدمت سفينة لتجار من لويزيانا،وكانت ضمن المستعمرات الفرنسية بأمريكا الشمالية،كانوا قد حصلوا على أموال طائلة من مزارعي القطن بالمستعمرات الجنوبية لقاء جلبهم لعبيد إفريقيا الأقوياء.

وقد كان آداما من هؤلاء العبيد الذين يفضلهم تجار النخاسة،فقد كان شابا مفتول العضلات،سليم الجسم، صلب العود،وهذا ما تحتاجه مزارع القطن بالضبط.. وهكذا اشترى أحد التجار ويدعى "الكونت خوان" الشاب كمارا وحمله معه رفقة آخرين عبر البحر المحيط نحو العالم الجديد.

لقي كمارا من أهوال البحر ما لقي،وانضم إلى العبيد الساهرين على خدمة السفينة،ينظف ويشد الحبال، ويخدم أسياده التجار المترفين،ظل كذلك لمدة أسبوعين كانت هي المدة التي قطعتها الباخرة الفرنسية من غوري نحو نيوأورليانز الميناء الذي رست فيه سفينة "جان دارك" أخيرا. وجد العبد آداما كامارا المزارع الثري في انتظاره، وبسرعة سلمه الكونت خوان إلى سيده الجديد والذي لم تكن ضيعته الواسعة بعيدة عن مصب نهر المسيسيبي الكبير.

هناك في أرض أمريكا سيكتب للشاب آداما حياة العبودية المقيتة،والتي كان محورها الأشغال الشاقة في مزارع القطن، ساعات طويلة من العمل ،ومراقبة لا تغفل من "عبيد البيوت" هؤلاء العبيد الذين كان يوظفهم الأسياد للتحكم في "عبيد الحقول" بامتيازات بسيطة من قبيل:

-منحهم ما تقادم من ألبسة عليهم.

-أكل بقايا طعام الأسياد.

-السكن في غرف قريبة من قصور أسيادهم...

أما آداما المنضم لعبيد الحقول فكان يعيش الفقر والاذلال، والعمل الشاق تحت لهيب الشمس الحارقة،ظل المسكين على هذا الحال ثماني سنوات لم تمحي من ذاكرته وطنه البعيد،وحريته المفقودة،وفوق ذلك كله لم تفارقه صورة رفيقته"كواميني" التي كانت محتجزة معه في نفس الغرفة،ونشأت بينهما قصة حب على أرض المعاناة هناك على جزيرة غوري البحرية.

تمنى أداما لو رافقته كواميني في رحلة المخاطر تلك حتى تظل قريبة منه،أما وقد ابتعدت عنه آلاف الأميال،فلم يعد يدري عنها شيئا،لكن قلبه احتفظ بذكراها التي أضحت تتلاشى مع توالي الأيام،واشتداد قيد العبودية حول عنقه.

حاول الهرب فلم يستطع لذلك سبيلا، كان عبيد البيوت يراقبون كل صغيرة وينقلون أخبار التحركات لسيدهم المزارع الثري..وأمام هذا الوضع تشبث الفتى المسلم بدينه..والحق أن رب المزرعة لم يعر لأمر التدين بالا،فلا يهمه سوى عضلات عبيده وليس ما يعتقدونه ويتعبدونه.

مضت الأيام رتيبة حزينة،إلى أن تناهى لمسامع العبد كمارا أن مستعمرات الشمال تحرر عبيدها وتصدر مراسيم عتقهم على عكس ولاية أريزونا وباقي مستعمرات الجنوب التي ترى أن هذا التحرير للعبيد سينسف تجارتهم المقامة على القطن وأكتاف السود.

حينها لمح كمارا الفتى التواق للحرية بصيص أمل يلوح من بعيد،وذات صباح باكر أقام فرائضه وخرج قاصدا المزرعة كما كان يفعل دائما،لذا لم ينتبه له الحراس لتعودهم رؤية ذلك منه،لكن أداما سرعان ما انعطف في اتجاه نهر المسيسيبي الكبير.. كان ابن البط عوام كما يقال،فكامارا ابن

النهر وحيثما تواجد التيار المتدفق توجد روحه ويجد ضالته، قالها في نفسه وهو يرمي جسده في مياه النهر البارد:

-إن كان نهر صنهاجة قد فقدت فيه حريتي،فعسى أن يكون هذا النهر مصدرا لاستعادة حريتي المفقودة".

توكل على خالقه،كان قوي الإيمان،حريصا على استعادة ما ضاع منه بأي ثمن،فرمى بنفسه في مياه النهر ثم ما لبث أن جمع أعواد الشجر وحزمها بحبل كان يشد به وسطه،فأبحر به القارب الصغير بعيدا،بعيدا بما فيه الكفاية عن مزرعة القطن ومعها عن وضع العبودية المقيت. كان وهو يبحر يشعر بطعم الحرية قد عاد ولو مؤقتا يعرف أن وضع حريته لا يزال هشا، فالعثور عليه من طرف البيض معناه أنه سيعود لحالة العبودية، لكن القدر قاده إلى مصير مغاير.

قطع فتى النهر أميالا طويلة حتى التجأ أخيرا إلى بلدة صغيرة تدعى"سانتا هيلينا" على ضفاف النهر، دخلها حذرا متيقظا، هذا الحذر الذي بدأ يزول حينما لمح الفتى الزنجي أن هاته البلدة يكثر فيها السود –بني جنسه-وأنه من خلال ملامحهم ومظهرهم خمن أن وضعهم أفضل من الوضع الذي كان عليه منذ أسبوعين هناك في مزرعة سيده السابق. ولسرعة ما عرف أن هاته البلدة أضحت ملجآ للعبيد المحررين،يدعمهم في ذلك بعض البيض المساواتيين والذين كانوا يدافعون بشراسة عن العبيد وهم من مستعمرات الشمال بالخصوص.

-مساهمة كامارا في التمهيد لحرب الإنفصال الأمريكية:

هذا ما كان يبحث عنه كامارا الفتى العاشق للحرية،ولهذا نال الترحيب من بني جنسه،ليتبوأ فيما بعد مكانة في قيادة هذا التجمع الذي سيصبح عما قريبا صداعا في تاريخ الولايات الأمريكية الآخذة في التشكل،بل سيكون العبيد أحد أسباب حرب الانفصال التي كادت تودي بمصير المستعمرات الإنجليزية الثلاثة عشر.

غير أن حاكم الولاية التي تنتمي إليها "بلدة العبيد" سرعان ما حشد جيشا قويا مسلحا،وقصد بهم هذا التجمع الغريب،فأطلق الجنود الرصاص بدون رحمة على السود والبيض على حد سواء.هذا الحادث والذي رغم مرارته جعلت كامارا يخاطب أحد البيض المؤيدين لقضية السود قائلا:

-" أظن أننا تساوينا أخيرا البيض والسود في هذا الأمر،بعد أن طالنا جميعا صوت الرصاص الحي."

قالها وضحك مطولا،إذ كان رفيقه يحترمه ويعرف قوة عزيمته،هذا الذي جعله يمد كامارا برسالة خطية إلى صاحب متجر كبير ببوسطن، المدينة الساحلية التي تعد حينها أكبر ميناء لتجارة الشاي المربحة.

كانت الرسالة موجهة إلى تاجر الشاي والذي كان صديقا للرجل الأبيض ومعارضا هو كذلك لتجارة الرقيق وقد كتبها صاحبها بعد أن أدرك أن هجوم حاكم الولاية ربما سيقضي على تجمع العبيد وهو لا يزال في بدايته.وأن مسألة تحرير العبيد لم تتهيأ له الظروف بعد،لذا نصح كامارا بعدم العودة إلى هذا المكان وإلا سيكون مصيره القتل أو العبودية من جديد.

وقد حصل ما توقعه صاحب الرسالة إذ لقي معظم المتجمعين العبيد حتفهم،بينما اعتقل البيض المناصرين لهم،وكان الحظ إلى جانب كامارا الذي امتطى حصانا سريعا وفر ناجيا بحياته بعد تلك المجزرة الرهيبة.

ومرة أخرى تقف الأقدار إلى جانب فتى السنغال، ويستمر هروبه شمالا متجنبا الأماكن المكتظة،حتى وصل بوسطن بعد أيام شاقة من السفر،كان لا يعرف المدينة الساحلية بالضبط، غير أنه دائما ما كان يلجأ للأديرة،يدعي حينها التعبد، ولما يطمئن لأحدهم يسأله وجهته.

-رحلة العودة إلى الوطن الجريح:

هكذا وصل الفتى أداما إلى ميناء بوسط،وتوجه مباشرة إلى تاجر الشاي بعدما وصفه له صاحب الرسالة وصفا دقيقا فلم يخطئه الشاب الزنجي المتقد الذكاء..ولما دخل المتجر وعرف السيد سلمه رسالة صديقه والتي تضمنت أخبار حركة العبيد والهجوم عليها،وأوصاه بالفتى كامارا خيرا..ولما قرأ التاجر الرسالة وأكرم وفادة أداما وأمر له بالأكل والشراب والراحة،وبعدها أخبره بحاجته فأجاب أداما دون تردد:

-"أود أن أعود إلى وطني في أقرب وقت".

ولما أخبر الفتى السنغالي تاجر الشاي بقصته العجيبة ورحلته الطويلة، بحث له هذا الأخير عن سفينة مبحرة نحو شواطئ إفريقيا والتي عرف من أحد أصدقاءه أنها ستبحر بعد أربعة أيام. سر كامارا بهذا الخبر وشكر تاجر الشاي على دعمه وتهيأ لرحلة العودة والتي ستكون بالغة الخطورة ولا شك في ذلك،فوضع السود كان قاتما والحصار كان مفروضا عليهم برا وبحرا،لكن التاجر النبيل كان قد هيأ "صك التحرير" لكامارا تنفيذا لوصية صديقه المناصر للسود،هذا الذي جعل الفتى السنغالي يسافر بأريحية تحميه تلك الورقة ذات السحر العجيب.

وهكذا أبحرت الباخرة"دو لافاييت" من ميناء بوسطن في العام 1780 للميلاد،حاملة تجار النخاسة نحو شواطئ إفريقيا في الوقت الذي كانت تحمل كامارا العبد المحرر والموصى عليه من طرف كبير تجار بوسط، وقد كلف كامارا بمهمة فتح محل صغير لبيع الشاي ببلده، ومقاسمة الربح مع التاجر الأمريكي، هذا الأخير اتخذ هاته الخطوة بعدما علم من صديقه عن إخلاص أداما وصدق تعامله،فزوده بأكياس كثيرة من الشاي يتقاسم من خلالها الشريكان الربح والخسارة.

أخيرا رست دولافاييت في ميناء جزيرة غوري،وعاد بعدها الفتى السنغالي إلى أرضه ووطنه،عاد محررا بقوة الأقدار وتاجرا صغيرا للشاي،تلك المكانة التي ستبعده أخيرا عن العبودية المقيتة،والتي لا تزال ترزح تحتها رفيقته كواميني، عرف ذلك حالما وصل لجزيرة غوري،فقد وافقه الحظ العجيب في العثور عليها خادمة في أحد قصور تاجر هولندي ثري..

-لقاء كامارا-كواميني وعناق خلد للتاريخ:

هذا التاجر الهولندي الجشع لم يجد بدا من بيع كواميني لأداما كامارا بعدما سال لعابه بالثمن الذي دفعه الفتى السنغالي مقابل تحرير رفيقة قديمة ظل وفيا لها لعقد من الزمن.. كان عناقا حارا مغمورا بالمعاناة، والاشتياق، وطعم الحرية ،ذاك الذي جمع كواميني وكامارا هناك فوق ساحة العبودية الشهيرة والقريبة من "بيت العبيد" على جزيرة غوري الرهيبة.

إنه لقاء بعد طول فراق،لقاء يحمل معاني كثيرة لدى الحبيبين بل ولدى كل العبيد في جزيرة العبيد، عناق كامارا وكواميني سيخلده التاريخ بلوحة تذكارية هي الأكثر تعبيرا عن حقبة سوداء من عهد الرق البغيض،لأن هذا العناق تضمن:

-سيرة عبد زنجي تمسك بحريته إلى آخر رمق.

-رمز لمصير آلاف العبيد الذين قضوا ضحية للعبودية.

-عودة لوطن مثخن بجراح القيود والرق المقيت.

-وفاء لرفيقة قديمة ظل مصيرها رهين بتحرر صديقها.

لكل تلك الدلالات ستحفظ قصة كامارا وكواميني في أولى الصفحات، صفحات أولئك الذي كسروا السلاسل والقيود،وذاقوا طعم الحرية أخيرا،بل وعادوا بعد أن عبروا"بوابة اللاعودة".. حكاية ستتجسد على شكل تمثالين ضخمين أقيم على أنقاض بيوت العبيد هناك قرب ميناء جزيرة غوري، جزيرة العبيد والعبودية.. إنه "تمثال الحرية الإفريقي" الشامخ،يؤرخ لذلك العناق بين كواميني وأداما كامارا بزيهما الأصفر المحلي،والذي يبدو فيه:

-ابن نهر السنغال: شامخا،رافعا يديه لأعلى،مكسرا سلاسل العبودية والأغلال.

لغز كابيتولينيا:

تحكي الأسطورة أن الذئبة" كابيتولينا "كانت تمثل حارسة لغابة الزان،تمنع بعويلها القوي كل دخيل من الاقتراب،وتحتكم إليها باقي حيوانات الغابة الغامضة ،فلا يجرؤ أحد منهم على تحدي أمرها أو التطاول عليها وإلا غرزت فيه أنيابها ونشبت فيه مخالبها الحادة ..ظلت على عرش غابة الزان مدة طويلة من الزمان،إلى أن كتب لها اللقاء الأول مع كائن مجاور يدعى الإنسان.

وقد تم ذلك بعدما فقدت لوبا كابيتولينا رضيعيها البكرين إثر غرقهما في نهر التيبر الذي ارتفع منسوب مياهه فاجتاح السيل كهف لوبا المحتضن للجروين،ولما عادت من صيدها وجدت التيار قد جرفهما بعيدا والكهف ممتلئ بالمياه الهائجة.

عوت لوبا بأعلى صوتها،كانت وهي تعوي تنادي بحرقة أم فقدت ولديها تحت قهر الماء وسطوة الطبيعة،لكنها لم تفقد الأمل في نجاتهما،فقررت البحث عنهما على طول مجرى النهر المخترق للغابة الغامضة،ظلت تبحث أياما وأياما دون جدوى ولما يضنيها البحث ويتعبها المسير تأوي إلى أحد الكهوف القريبة وتظل ترقب النهر منكسرة القلب، تخالطها مشاعر الفقد والغضب.

وهي على تلك الحال لا تكاد تفارق نهر التيبر المنساب خلسة من غابة الزان المثمرة، وذات يوم من أيام نيسان/أبريل وكان يوما مشمسا مزهرا إذ بها تلمح رضيعين صغيرين، بدا وكأن أحد ما وضعهما في سلة صغيرة، وقد بدا رأسيهما لذئبة التيبر واعتقت في الحال أنهما صغيريها المفقودين.

لذا أسرعت كابيتولينا نحو شجرة التين التي اعترضت بجذوعها الممتدة أسفل النهر تلك السلة ومعها أنقذت الطفلين من الانجراف بعيدا بقوة التيار المائي الذي لا يتوقف..وما هي إلا أن أدركت لوبا أن السلة تحمل رضيعين لكنهما ليسا من جنس ابنيها وإن كانا يصدران صراخا بدا للذئبة المكلومة بفقد جرويها أنه شبيه بصراخ الجوع الذي كانت تسمعه دائما حينما تقترب من الكهف الذي كان الصغيرين يملآنه حياة وصخبا.

ولسرعة ما اتخت لوبا قرارها دون تريث،فاستخدمت أنيابها الفتاكة لجر السلة بعيدا عن التيار الذي صارت تخشاه وتتقي غضبه أكثر من أي وقت مضى، بعدما كانت المياه الهائجة سببا حاسما في اختفاء جرويها المفقودين،غير أن ألم الفقد توقف فجأة حينما أخرجت الصبيين من السلة واحتضنتهما بكل حنان ،بل ومدت لهما ثديها في لحظة عجيبة ستسجل ولا شك كأشهر اللحظات حميمية وغرابة..لحظة فقد فيها المنطق صوابه،ووجدت فيها لوبا كابيتولينا الدفئ الذي فقدته بعد حادث غرق صغيريها إلى أن عوض لها التيبر ذاك الفقد.

توالت المشاهد العجيبة حينما خفت صراخ الرضيعين البشريين بعدما وجدا أخيرا الحليب الساخن،فأقبلا على ثدي لوبا يجرانه بنهم،ثم تحول صراخهما إلى أصوات لعب وسرور حينما شعرا بحنان الأمومة يغمرهما،ولم تلبث لوبا أن حملت الصغيرين بلطف نحو الكهف الذي كانت تتخذه بيتا لها ولجرويها،وكان الكهف يدعى لوبركال.

ظلت لوبا ترضعهما وتدفئهما معتقدة أن الطبيعة قد جادت عليها بصغيرين وجدت فيهما ما طمأن قلبها وهدأ روعها،وهي على تلك الحال من اللاستقرار إذ براعي غنم يرقبها من خلف الأشجار الكثيفة،ويشاهد عجيب ما تراه عيناه ولا يكاد يصدق قلبه:

-"مشهد ذئبة مستلقية بينما يقبل على حليبها طفلان بشريان".

للحظات يفرك الراعي"فاوستولوس" عينيه غير مصدق،لكنه آثر التخفي خلف الأشجار حتى لا تشعر به لوبا الذئبة الحنون فيصدر منها ما يخشاه،وهكذا صعد بلطف شجرة قريبة وجلس يرقب المشهد ويعاين عجيب الصدف إلى أن اشتمت لوبا رائحة قطعانه فتركت الصبيين وخرجت تبحث عن رزقها الذي ساقه لها القدر.

وتلك كانت فرصة انتظرها الراعي بصبر وقلب تتسارع دقاته خوفا على هذان الصغيران من أن تنفجر غريزة القتل في نفسية الذئبة المرضعة فتغرز حينها أنيابها في جسد الرضيعين وذاك ما لم يحصل لحسن حظه وحظ الطفلان اللذان تبنتهما لوبا وحفظهما القدر، فلم يقع لهما أي شر.

أدرك الراعي فاوستولوس أن الذئبة الجائعة قد خرجت للصيد،وأن بعض مواشيه لا محالة ستكون وجبة دسمة لها،لكنه آثر التضحية بإحدى نعاج قطيعه فقط لكي ينتشل الرضيعين من كهف لوبا بأقصى سرعة ممكنة،وما هي سوى لحظات حتى كانت أذناه تسمعان ثغاء قويا لخرافه المسكينة من جراء هجوم لوبا عليها.

كانت تلك فرصته السانحة،فتسلق بسرعة البرق التلة المجاورة للنهر المنساب ودخل الكهف وما لبث أن وضع الرضيعين في السلة وحملهما وهو يسرع ويلتفت يمنة ويسرة كالمجنون..ولما ابتعد كفاية صعد لأعلى شجرة السنديانة وربط السلة بحزام كان معه لكي لا يسقط الرضيعان فتتحول حينها مسألة الإنقاذ إلى كارثة لو سقط ابنا الذئبة من أعلى.

عاد الراعي فاوستولوس إلى غنمه التي تفرقت وسط الغابة،فأصدر صفيرا مطولا كان كافيا لتتجمع خرافه حوله من جديد بعد تشتتها إثر هجوم لوبا عليها،كان القطيع ناقصا بنعجة واحدة أدرك مع غيابها هذا الراعي الشجاع أن التضحية بها أهون عليه من ضياع الصغيرين التوأمين.قال محدثا نفسه بالنصر الذي حققه:-"التضحية بنعجة من القطيع أهون من افتراس ذئبة نهر رومون للشقيقين الرضيع.

عند حلول المساء كان الراعي يدخل قريته حاملا معه الرضيعين،هذان الصغيران اللذان رباهما تربية ارتكزت على الشجاعة واقتحام مجاهل الغابة والسباحة في النهر،تلك الأمكنة التي صنعت شخصيتهما كما صنعت من قبل قدرهما العجيب،ظل الحال على ما هو عليه إلى أن كبرا واكتشفا معا قصتهما العجيبة..أما لوبا فظلت لزمن تصدر عويلا مسترسلا على طول المجرى المائي بين كهفها وقرية الراعي ..ربما قد اشتمت يوما رائحة طفليها البشريين لكنها لم تستطع لذلك سبيلا..

وحده فوستولوس كان يعرف مصدر العويل الحزين ويدرك مغزاه،لكنه لم يكن يود أن يفقد الصغيرين وهو الكهل الذي لا وريث له..ظل الأمر على ها الحال ردحا من الوقت حتى خفت ذاك الصوت وضاع في سكون غابة الزان الغامضة.

تكمل الأسطورة تفاصيلها بعدما شب رومو وروموليوس وكانا هذا اسمهما الذي أطلقه عليهما الراعي نسبة إلى النهر الذي وجدهما بالقرب منه،فقد كان الشق الذي يقطنه الراعي من نهر التيبر يسمى بهذا الاسم"وادي رومون" عند سفح هضبة بالاتين حيث كان يسكن الشعب اللاتيني القديم.. الشعب الذي ينتمي إليه الراعي الشجاع.

دارت الأيام ومضى الزمن يسير ويسير،كبر الرضيعان وتحولا إلى شابين قويين،ثم ما لبثت كاهنة القرية أن أخبرت رومو وروموليوس "أبناء الذئبة" بقصتهما ودلتهما على ما فعله عمهما الملك "أموليوس" هذا الذي اغتصب العرش وقتل والدتهما الحقيقية الكاهنة" ريا سيلفيا" بل ووضعهما في سلة وأمر عبيده أن يتم رميهما

بنهر التيبر حتى لا يطالبا بعرشهما المفقود..لكن القدر خط لهما سبل النجاة،وأرسل لهما ذئبة الكابيتولينا لتكون لهما الأم المخلصة، والحنون المرضعة.

لما علم الشابين بقصتهما خرجا أولا نحو كهف لوبريكال حتى يعثرا على لوبا الأم المرضعة ،ظلا يرقبان الكهف الذي كان يلفه السكون ورائحة بدت مألوفة للتوأمين الشابين،لكن الانتظار لم يجدي بنتيجة،باتا ليلتهما هناك في بيتهما الأول لعل الليل يجود عليهما بأمهما المختفية .كان القمر خافتا تلك الليلة الطويلة غير أن ضوءه كان كافيا لملئ الكهف بالدفئ والسكون.

ولما انتصف الليل وصعد القمر نحو منتصف السماء سمع الشقيقان عويلا بعيدا بدا معروفا عندهما،فأدركا على الفور أنه قد يعود للوبا الحنونة،فأسرعا خارجان من المغارة وهما يتتحسسان مصدر ذلك الصوت الذي كان يرتفع تدريجيا كلما صعد الشقيقان أعلى التلة.

لمح رومو ورومولوس قطيعا من الذئاب الرمادية مجتمعة تعوي بشكل جماعي وموجهة عويلها نحو القمر الخافت،كانت تلك طقوسهم في هاته الغابة الكثيفة التي يحكمها هذا القطيع منذ زمن سحيق،.سرى الخوف في قلبي الشابين ولم يستطيعا الاقتراب أكثر وهما لا يعلمان إن كانت كابيتولينا الأم مع ذاك القطيع أم لا ،قال رومو:

-لننتظر هنا،فربما حملت الرياح لأمنا المرضعة خبرنا فتقدم نحونا.

أومأ رومولوس بالإيجاب،قائلا:

-سننتظر حتى الصباح فإن لم يكتب اللقاء غادرنا في اتجاه تحقيق باقي أهدافنا.

كان رومولوس فتى لا يحيد عن هدف رسمه، وغاية نشدها، ولو تحققت بوسائل متناقضة،أما رومو فكان عكسه تماما،فتى لاهي ذا سخرية لا تخفى،على أن الحليب الذي رضعاه في صغرهما من ثدي لوبا كان ليثرك أثره الواضح على سلوكهما..وقد خطط الأخوين لثلاث غايات لن يحيدا عنها منذ علمهما بخبر تربيتهما من راعي القرية الشجاع:

-البحث عن مرضعتهما الذئبة كابيتولينا وهو الأمر الذي لم يتحقق رغم مكوثهما في الكهف وانتظارهما للوبا التي لم يظهر لها أثر.ما سيحدث بعد سنين أن رومولوس هو كذلك سيختفي ذات تماما كما اختفت أمه الذئبة . حدث ذلك بعدما اتسعت مدينة روما التي أسسها وزحفت على جيرانها واختطف "الملك-الذئب" نساء شعب مجاور لهما كان

يسمى "شعب سابين" بعدما لاحت له معضلة خلو مدينته من النساء.. وبعد أن حكم ثلاثة عقود اختفى رومولوس كما تختفي الذئاب التي رضع من حليبها،تلك الكائنات الأسطورية التي رضع منها خصلة الغدر حيث فتك بأخيه رومو،بينما صفة الاختفاء كانت هي آخر ما عرف عنه بعدما غاب عن الأنظار ذات يوم ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

كان وهو يختفي قد سلك مسار مرضعته الذئبة كابوليتينا التي طواها غموض غابة الزان،وربما كان رومولوس وهو يختفي قد قرع فؤاده تأنيب الضمير حيث ظل يعصف به الشعور بالذنب لقتله أخيه الشقيق، فاختار الاختفاء وسط الغابة الغامضة فربما:

-قد تجود له مياه نهر التيبر بلقاء أخير مع الذئبة لوبا،تلك الأم المرضعة والتي بتصرفها العجيب كانت قد حولت معها البشري رومولوس إلى أول "إنسان-ذئب" عرفته البشرية،نفسها البشرية التي احتفظت لمؤسس روما بصفته تلك حينما نسجت عبر خيالها الواسع قصة روما وحكاية نهر رومون ومعهما عجائب الذئبة لوبا،بل وشاع مثل رائج منذ ذلك العهد يقول:"-الذيب يبقى ذيب،ولو رضع من النعجة الحليب..."أما لسان حال رومولوس فكان يردد:

-لقد ورثت صفات الذيب منذ أن رضعت من كابيتولينا الحليب.

عروس النيل الفاتنة:

تخبرنا الرسومات المنحوتة على جدران الأهرامات أن الإله حابي أجرى مياه النيل بشكل دائم،فعمت الخضرة وازدهرت الحياة وأضحى الاستقرار خيار ملائم، فاختار الشعب القديم حياة الزراعة على ضفاف هذا النهر الخصيب،بنى وشيد الأهرامات والمدن وأبدع الكتابة بخط عجيب.
استمر الزمن يمضي بطيئا على تلك الحال،إلى أن رأى الشعب تغير الأحوال،أضحى النهر يفيض على الحقول،ويتلف عبر مياهه الهائجة جل المحصول. تنبه الأذكياء من شعب النيل إلى أن الفيضان:

- يأتي في وقت محدد من الزمان.

حينها انبرى كاهن الشعب مخبرا بضرورة تقديم القربان،وإلا حلت الكارثة بكل إنسان،وأن الإله حابي متقلب المزاج،فلنرمي له في النهر فتاة جميلة يتخذها للزواج،نتقي بها غضبه القادم،ويعم علينا بالرضى والخيرات في قادم المواسم.

تجملت الصبايا وتزين بأفضل الثياب،يبكين في السر على فقد وشيك للأحباب،ينتظرن اختيار الكاهن لإحداهن "عروسا للنهر" لقب فخري تحتفظ به أبد الدهر، كزوجة لحابي إله المياه،فقد اختيرت عذراء لم تتزوج سواه.

هكذا اتخذ عيدا موسميا سمي بعيد "وفاء النيل"، تقذف فيه العروس ودمع أهلها مغزار يسيل،يطمئن الكل خادم إله الماء،الكاهن الأعظم وهو صلة الوصل بين الأرض والسماء،يتمتم بكلام يتلوه على الجميع:

-يا حابي،أيها الإله المقدس العظيم،تقبل منا هذا التكريم..جنبنا غضبك الرهيب،وكف عنا فيضانك واجر علينا نهرك الخصيب.

هكذا مرت السنين تلو السنين، وحابي يأخذ في كل عام الفتاة ذات المصير الحزين.إلى أن جاء العام الذي لم يجد الكاهن ما يرميه لمعبوده المغرور،إلا أميرة من بنات القصور،فقد فقدت الصبايا الحسناوات، وجاء الدور على "هاميس" جميلة الجميلات.

كان لا بد لهذا الطقس التعبدي أن يتواصل سيرا على سالف المواسم،ولو تلقى في النهر فتاة من عائلة البيت الحاكم.فلا يهم النيل وحابي الجبار، إلا قربانا بشريا تدرأ به الأخطار.

زينت الأميرة الحسناء،واستعدت لتزف عروسا لإله الماء،غير أن خادمة للأميرة كانت قد تربت على الوفاء،ساءها أن تلقى مولاتها ذلك الجزاء.فكرت في خطة تجنب هاميس شر البلاء.باتت ليلتها تعد العدة لاستبدال عروس النيل،بأخرى من الخشب بعد خطة دبرتها بليل.زينت الدمية بأبهى الحلي والجوهر النفيس،وعدلت الوجه حتى يعتقد الكاهن أنها الأميرة هاميس.

وعند الصباح كان الموكب قد استعد للاحتفال،أما الخادمة فلم تلقي لذلك بال.بعدما اطمأنت على وقوع الكاهن الأوحد،ضحية حيلة لعملية تبادل بين هاميس ودمية الخشب دون انتباه أحد.أما الأميرة الناجية فظلت ترقب الحشد من بعيد،تخفي صورتها مسرورة بعد أن زال عنها التهديد.

مرت الطقوس على ما يرام،وعم الخصب مدة وساد السلام،إلى أن أدرك حابي أنه وقع ضحية لخداع أثيم، فثارت ثائرته وأعلنها لعنة مدوية ستصيب كل من أراد الشر بالنهر العظيم.غير أنه أضحى يسلط لعنته على الغرباء،بعدما أدرك أن من نفذ الخديعة كانت خادمة ليست من أرض النيل ولا من سكانه الأوفياء.أما أهل النيل فأصبحوا منذ خديعة الخادمة التي أنقذت حياة هاميس سيدة الأميرات ، يرمون عروسا من الخشب عوضا عن بناتهن الجميلات.

أما النيل فقد:

-رضي منهم بتلك الطقوس..

-ولم يعد يكترث بنوع أو شكل العروس.

فارس سمرقند

لما وطئت جيوش الفاتح العربي الشهير"قتيبة بن مسلم الباهلي" أرض سمرقند،بعد أن دانت له بلاد ما بين النهرين وامتدت جيوشه المظفرة حتى كاشغر بالصين،ظل يحكم هاته الأرض الواسعة طيلة عقد من الزمن إلى أن كتبت له نهاية حزينة،بعدما تهاوى به مجد صنعه فوق خيوط العنكبوت،وانهار عرشه الذي شيده على صهوة حصانه إثر نزعات قبلية راح ضحيتها القائد الباهلي،لكن سيرته ظلت تتردد في سمرقند،وقصة دخوله المدينة بشيء من الدهاء لم تعجب كهنة أهل البلد.

وحينها قرر هؤلاء الكهنة الذي شعروا بخطورة هذا الدين الجديد على وجودهم ووجود معابدهم،فاجتمعوا ذات يوم في أحد دور عبادتهم،وقرروا أن يطعنوا في شرعية دخول جيوش الإسلام إلى أرضهم،أرادوا ذلك بعد أن مات قتيبة وجاء والي جديد،وبعد أن علموا أن هناك خليفة عادل اسمه عمر بن عبد العزيز.

وهكذا اختاروا فارسا من فرسانهم كان يدعى"صاحب الجواد الأحمر" ليكون حاملا لرسالة الشكوى نحو دمشق عاصمة الخلافة،فانطلق فارس سمرقند يعدو ويعدو...كان وهو يسابق الريح يدرك أن ما في الرسالة حمل ثقيل:

-شكوى إلى خليفة ضد جيشه الحاكم لسمرقند حينها.

كان يعلم وهو يسير إلى الشام أن مطلبه محال التحقق،وأن هاته الأشهر التي قضاها في المسير قد تنتهي به مقتولا أو أسير،كان وهو يدنو من قصر الخليفة قد وخزه الضمير وتخوف من سوء المصير.

غير أن الذي حدث له بعد ذلك كان أشبه بحلم جميل،رآه في الثلث الأخير من الليل،كيف لا وهو على موعد مع نسج أغرب قصة عن عدل خليفة وأخلاق أمير..يقول صاحب الجواد الأحمر:

-"لما وصلت دمشق دار الخلافة،أخذت أتنقل بين أحيائها،وأخذت على نفسي بألا أتحدث باسم السلطان خوفا على نفسي،ولما رأيت أعظم بناء في المدينة دخلت إليه فإذا الناس يدخلون ويخرجون،ويركعون ويسجدون،فسألت أحدهم:

-أهذه دار الوالي؟

-قال:لا،بل هذا هو المسجد.

-قال الرجل:أصليت؟

-قلت:ما صليت.

-فقال:وما دينك؟

-قلت على دين أهل سمرقند.

ثم جعل الرجل يحدثني عن الإسلام حتى لامس الدين قلبي وعقلي،فشهدت الشهادتين،وأخبرته عن مقصدي فدلني على قصر السلطان،فوكزت جوادي حتى دنوت من رجل كان يحمل بين يديه طينا ويسد به ثلمة من داره،وإذا بزوجته تناوله الطين،وحينها استغربت الأمر وعدت مسرعا إلى الذي دلني على الأمير وخاطبته في غضب:

-سألتك عن دار الأمير لتدلني على دار طيان !!

غير أن الرجل كان هادئا،متيقنا مما يقول،وفي هدوء مصحوب بابتسامة عريضة قال لي:"هو ذاك أمير المؤمنين".

ساعتها لم أعد قادرا على الفصل بين صدق الرجل وتكذيب عيني لمشهد السلطان،غير أني تغلبت على دهشتي وركبت مجددا صهوة جوادي واتجهت نحو الرجل"الطيان"فسلمت عليه فرحب بي وغسل يديه من الطين،وقال لي:

-ما تريد؟

-قلت: هذه رسالة من كهنة سمرقند.

فقرأها،ثم قلبها وكتب على ظهرها:"من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إلى عامله في سمرقند أن انصب قاضيا ينظر فيما ذكروا"..ثم ختمها وناولني إياها... خرجت من عنده وأنا غير مصدق لما شاهدته عيناي ولم يصدقه عقلي،وانطلقت بجوادي أسابق الريح وأنا أسائل نفسي:

-لولى أني أخشى من أن يكذبني أهل سمرقند لألقيت الرسالة في الطريق،ما ذا تفعل هاته الورقة وهاته الكلمات في إخراج جيش منتصر يقبع سيدا للمدينة بلا منازع !!

وبعد أشهر كنت أتتبع طريق العودة إلى سمرقند البعيدة،كان هناك فرق شاسع بين ذهابي وأوبتي فقد كنت في الأولى خائفا مندهشا وفي الثانية أصبحت مطمئنا فرحا مستبشرا،حتى الطريق كانت آمنة،والدروب كانت سالكة فالأمن صار رمزا لأمة الإسلام،والأمان تشعر به في كل مكان،وروحي سكنها نور الدين المحمدي فأيقنت أن أمل الكهنة في إبقاء المدينة وثنية الهوى ضرب من المحال،حتى في ظل نصرتهم من الخليفة برسالة اعتبرت نفسي أني المسؤول عن إيصالها كأمانة في عنقي.

وما هي إلى أيام حتى دخلت على الكهنة وناولتهم الرسالة،وقد رأيت أن الدنيا أظلمت في أعينهم حينها،ولم يعودوا قادرين على اتخاذ قرار حاسم فأشرت عليهم إلى الذهاب عند الوالي وأن حياتهم في مأمن في ظل وجود خليفة نشر العدل والأمن،فسارعوا حينها إلى قصر الحاكم،وناولوه الرسالة،فلم يلبث هو كذلك أن امتثل للأمر ونصب قاضيا لم ترى عيني أعدل منه،وكان اسمه"جميع بن حاضر".

كانت محاكمة سريعة تلك التي عقدها القاضي جميع،وهاهم الكهنة يقفون صفا لينافحوا عن أهل سمرقند،بينما انتصب القائد العسكري كمدعى عليه صامتا لا يتكلم،فأمر الكهنة بالكلام فقالوا:

-لقد اجتاحنا قتيبة ولم يدعنا للإسلام ويمهلنا ثلاثا لننظر في أمرنا كما هي تعاليم الإسلام.

فالتفت القاضي نحو خليفة قتيبة-وقد كان معه في حصار المدينة- وطلب من جوابا فقال:

-لقد كانت أرضهم خصبة وواسعة،فخشي قتيبة أن يتحصنوا عليه إن أمهلهم،وقال بأن الحرب خدعة.. وحينها وقف القاضي منتصبا وقال"لقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله وما خرجنا فاتحين للأرض أشرا وبطرا..وإني آمر أن يخرج المسلمين عن المدينة وفقا لمبادئ ديننا الحنيف.

كان صاحب الحصان الأحمر قد راعه الخبر،وهاله المنظر،وهو يبصر عن كثب الكتائب تلو الكتائب من جيوش المسلمين وهي تغادر سمرقند صباح اليوم الذي تلا المحاكمة،خرج الجيش كله ولم يتخلف أحد،لم يتمالك صاحب الرسالة نفسه أن أجهش بالبكاء من عدل خليفة وتعاليم دين.كان لسان حاله يقول كما قال الكهنة وأهل سمرقند تماما:

-"هذه أمة حكمها رحمة،ولا بد لنا أن نعتنق هذا الدين ونرحب من جديد بالمسلمين."

ولم يكن من أهل سمرقند أحق بزف الخبر إلى الجيش المغادر أفضل من الفارس صاحب الحصان الأحمر،هذا الذي أرسله أهل سمرقند إلى اقتفاء أثر الجند،حيث نادى بأعلى صوته وهو يشرف على مؤخرة الجيش الذي ابتعد أميالا عن المدينة وقادته راضون بحكم قاض منهم أصدر حكما ضدهم،صاح صاحب الجواد الأحمر:

-"يا معشر المسلمين،أهل سمرقند يدعونكم إلى الرجوع..فما رأوا كاليوم أعدل منكم،فالعدل جوهر الحياة،وأن سمرقند أعلنت لربها كل الخضوع".

لا يعرف بعدها نهاية الفارس صاحب الحصان الأحمر،بعضهم قال أن القوم نصبوه مبعوثا لهم إلى أراض مجاورة حتى يدعوهم للإسلام،والبعض الآخر قال بأن الفارس النبيل راح يتعبد في تلال سمرقند زاهدا في الدنيا مقبلا على تغذية روحه بعبادة ربه بين تلال ووديان ووحوش المدينة التي تحتضنها الطبيعة وتلفها الأسطورة.

طائر التورول.

بدأت الحكاية مطلع القرن التاسع الميلادي حينما قررت القبائل السبع للهنغاريين النزوح من موطنهم الأصلي بآسيا الوسطى أو الأورال باختلاف المؤرخين حول أصل القبائل المرتحلة،وحول دواعي الترحال.منذ مطلع القرن التاسع الميلادي،حيث استوطن شعب المجر ضفاف نهر الدانوب بإرشاد وتوجيه من هذا الطائر الأسطوري.

تحكي القصص الهنغارية أن القبائل التسع ظلت تائهة لا تستقر بمكان،وما إن تستوطن منطقة ما حتى يعرض لها طارئ يدفعها نحو جمع الخيام والسير نحو الأمام.كانت أكثر الأمور صعوبة هي شدة الحروب التي خاضتها القبائل المجرية مع أهالي الأراضي التي يودون الاستقرار بها،هذا مع شدة خلافاتهم حول زعيم واحد أوحد تكون له سلطة القرار..من ترحال أو استقرار.

ظل الأمر على هاته الحال غير المستقر حتى التفت القبائل السبع على قائد شاب يدعى"أرباد" وكان بطلا طموحا متقد الذكاء،اتخذ وهو صغير طائرا أسود اللون من الجوارح يشبه الصقر،كان والده قد اصطاده وهو صغير فقدمه للفتى أرباد الذي اعتنى به واتخذه صديقا ورفيقا.

ولما خلا الجو للشاب صاحب الطائر الكاسر زعيما للقبائل المرتحلة،قرر اتخاذ رفيقه التورول قائدا للقيافة،بناء على وصية من كاهنة القبيلة"فارست" هاته العرافة التي كانت قد أخبرت أرباد أن طائره سيرشده إلى مملكته الموعودة في المكان الذي سيسقط التورول السيف من رجليه.

كان الزعيم الشاب مؤمنا بقدره،موقنا بإخلاص طائره الشجاع،مدركا أن التورول له قدرة خارقة على مواجهة "الفيلاغ" وتعني في الميثولوجيا الهنغارية العوالم الثلاث التي يتعين على القبائل السبع اجتيازها للوصول إلى الأرض الحلم.

كان أرباد يدرك أن العالم العلوي ويسمى فيلشو فيلاغ عالم الأرواح الخيرة،يحكم هذا العالم "إيشتان" -وتعني الإله باللغة الهنغارية- كان القائد المجري يشعر أن الإله يحبه ويدفعه نحو مصيره وقد زوده بهذا الطائر المرشد.

أما العالم الأوسط "كوزيبشو فيلاغ" فقد استعد له القائد المجري جيدا لعلمه أنه سيواجه فيه أشباح الغابة وأشباح الماء وهم المأمورين بإخافة البشر،لكن صاحب التورول لم يكن من النوع الجبان،كان يمتلك من رباطة الجأش ما جعله قادرا على:

-اصطياد "الشيلو": حورية الدانوب التي تتخذ شكل جذع امرأة وذيل سمكة.

-مبارزة"الشاركانيه": وهو التنين المخيف ذو السبعة رؤوس.

-الليدرت: ذاك المخلوق الشبحي الغامض صاحب الأعمال الخبيثة.

-وحتى "المانوك" العفاريت.و"التوربيك" الأقزام كان الملك الشاب يتوجس منهم،حتى اطمأن أرباد أخيرا لهما بعدما رافقه الأقزام في رحلته للبحث عن مدينة حكمه بودا.

-وحدهم الأورياشوك "العمالقة سكان الجبال الأشرار من تصدوا للقبائل السبع،بل وكادوا يقضون على أرباد وجيشه لولى تدخل طائر التروورول الحامي للقائد والقبائل.وذلك بعدما استدعى الطائر المرشد جحافلا من بني جنسه أصدرت أصواتا أرعبت سكان الجبال فولوا منسحبين نحو كهوفهم ومغاراتهم.

لم يتبقى للقائد أرباد سوى اجتياز العالم السفلي"آلشو فيلاغ" فاستعان الفتى بالحكيمة المسنة والتي تدعى عند المجريين"بالباباك" هاته الأخيرة مزجت خليطا من أعشاب الدانوب وتلت تعويذات وطلاسم استطاعت بها أن تطرد الأرواح الخبيثة رمز العالم السفلي،بل وعبرت بأرباد إلى وسط الغابة حيث طاردت "أوردوغ" خالق كل شيء سيء،هذا الذي أقام منزله وسط الأدغال تحرسه أسراب القمل والضفادع والبراغيث.

وفي العام 895 للميلاد،كانت القبائل الهنغارية قد التفت حول زعيمها أرباد الذي كان يعصف بكل من يعترض طريقه من قبائل معادية،كان وهو يسير على فرسه القصير يتبع طائره القائد،وقد سار التورول المرشد على طول مجرى نهر الطونة إلى أن وقف على مشارف سهول الكارابات،ومعه

توقفت جموع القبائل المجرية ،وما لبث الطائر أن أسقط السيف من بين مخالبه في المكان الذي سيشيد فيه القائد أرباد قلعة بودا.

طلب القائد الشاب من القبائل السبع حط الرحال والاستقرار على ضفة الدانوب الغربية،متخذا من مكان وقوع السيف قصرا له ودار حكمه،وشرع لتوه في تأسيس واحدة من أقدم ممالك أوربا،إنها:

- "مملكة المجر" .

ولما دانت له الأرض شرع أرباد في تأسيس قلعة بودا كمقر لحكمه الجديد،أرادها أن تطل على النهر الذي آواه واحتضنه،وشيدها بالطوب الأبيض حتى تظل رمزا لحكم سلالته الملكية.

وبالقرب من القلعة شيد "حصن الصيادين" ذي الأبراج السبعة كرمز لعدد القبائل المجرية التي قدمت مع أرباد من مكان بعيد.

هاته المملكة الجديدة المقامة على ضفاف الدانوب الذي يتخذ في بودا اللون الرمادي،سرعان ما تحولت إلى إمبراطورية في العام 1000 للميلاد،تحت حكم سلالة أرباد،تلك السلالة التي اعتنقت المسيحية وظلت على ولائها للبابوية حتى آخر ملوكهم "لويس الثاني" في العام 1526 للميلاد،حيث أنهت معركة موهاكس مملكة المجر،وأضحت حاضرة الدانوب تابعة للأستانة العظمى.

لقد غيرت موهاكس الشهيرة واقع الدانوب،بعدما عبرت حوالي ثمان مائة سفينة تركية مياهه،ومعها غيرت تاريخ المجر،لا بل أثرت في شعوب هنغاريا أثرا بليغا،حتى غدا اسم المعركة مثلا شائعا يضرب في حالة سوء الحظ،فيقول المثل المجري:

-"أسوء من هزيمتنا في موهاكس".

وحده طائر التورول ظل صامدا في وجه غزاة المجر من عثمانين وألمان وشيوعيين سوفييت،يذكر تمثاله المشيد فوق القلعة الملكية وعلى جبل تاتابانيا بطول خمسة عشر مترا كأكبر تمثال لطائر بأوربا وربما الأضخم في العالم بأسره،يخبر كل من رآه:

-" أن هاته الأرض المنبسطة الخضراء لا تستقر لغازي إلا لشعب المجر الذي قدته بنفسي،مسقطا سيف أرباد الأسطوري بعاصمته بودا "لؤلؤة المجر" و"وملكة الدانوب"،تلك المدينة التي خلدني شعبها:

-كأكثر الطيور قداسة بالدانوب الكبير.

طقس غريب

في ذلك الصباح الربيعي المشمس،دبت الحركة فجأة في قريتنا النائية ، تلك التي تنتصب على الهضبة الوسطى لقبيلة بني مسكين على مشارف نهر أم الربيع .كان الحدث يغري بهكذا حركة ، فموسم سيدي الفحلي قد حل ، ورجال القرية ونساءها قد استعدوا للرحيل نحو زيارة الولي صاحب القبة المفتوحة على أبواب السماء.

تقول جدتي حادة :

-إدريس ،عجل يا بني لتحضر الأثان..فالوقت يداهما، والقوم في انتظارنا.

-حالا جدتي .

أسرع حينها نحو مربط الأثان ، أفك قيودها ، ثم في خفة شيطانية أعلوا ظهرها ، وأنا أكاد أطير فرحا ، فقد حان الوقت للذهاب نحو الموسم الذي ننتظره نحن الصبية بفارغ الصبر ،أكثر من شيوخ القرية وكلابها.

كنت حينها في الخامسة من عمري ، لم ألج بعد المدرسة ، وإن كنت أتردد على المسيد من حين لآخر..لذا ففرصة الهروب من عصا الفقيه بن عطيلة قد لاحت لي بعدما جاء موسم سيدي الفحلي.

وماهي إلا أن وضعت جدتي ما يلزم من معدات فوق سرج الأثان ، كان أهمها أواني الطبخ ، وبراد الشاي .أما جدي فقد حمل أمتعته الخاصة كان أهما البندير والعصابة ومحفظة خضراء اللون..وهي أغراض ظلت تلازمه طول حياته.. ونحن نجهز أنفسنا كنا نسمع من حين لآخر نداء يحثنا على الإسراع للالتحاق بركب المتجهين نحو الضريح . ولما ظهرت الشمس في كبد السماء ، أردفتني جدتي معها على الأثان ، في حين انطلق جدي بخطى عريضة توافق جسمه الضخم.لم أشعر بالوقت إلا حينما استدارث الأثان نحو شجرة السدر التي اجتمعت حولها القبيلة معلنة بداية الموسم.

إنه الموسم الذي ينعت محليا ب" اللامة " وتعني عندهم إحياء حفل الحضرة الموسمية التي تقام على شرف الجد الأول الفحلي ، حيث تجتمع القبيلةكل سنة ، وتقام موائد الأكل والشرب ،

وتذبح الذبائح ، ثم توقد نار أسفل الشجرة المنتصبة فوق الروضة المجاورة للولي صاحب القبة الشهيرة.

إلتف الكل نحو الشاة المعدة للذبح ، شيوخ وأطفال ونساء الكل يهتف بالتسبيحة المتعارف عليها " الله حي " ..شكل الجمع دائرة وضعت في وسطها مدية وحبل لشد وثاق القربان، وما هي إلا أن قام أحد سدنة الضريح المسمى بليماني بذبح الشاة ، ثم بدأت المراسيم بأن طيف بالشاة حول القبة المعظمة تحت تسبيح" الله حي" ، كان وهو يجدب لا يدري ما يفعل ، يتبعه الرجال في حلقة محكمة .

أما نحن الصبية فقد ابتعدنا قليلا عن حضرتهم ،تخوفا من تلكم العادة التي كانوا يلزموننا بها وهي أن يدخلوك من نافذة الضريح الضيق جدا ، حتى لكأن رأسك يكاد يفصل عن جسدك، بينما تسمع النسوة المحيطات بك ترددن أن هذه العادة تجنب العين وشرورها..لذا فضلنا أن نتسلق أشجار السدر ذي الأشواك الحادة ، كنا حينها نتسلق حتى القبور ولا نراعي لها حرمة.فعلنا ذلك لعدم اكتراث الكبار بنا ، كانوا في شغل منهمكين.

استقرت الأضحية أخيرا أمام القبة التي هي بلا سقف ، ثم ما لبث القوم أن قطعوها . بعدها عمد أحد الشيوخ إلى جمع القوائم الأربع للشاة وعلقها في أحد شقوق الضريح..كانت تلك عادتهم فتترك هناك حتى تيبس ولا يقربها أحد.

أسرعت النسوة نحو شجرة السدر لإعداد الطعام ، وهو الكسكس المعد على أعواد الحطب ، وفضلات الدواب..كان لذيذا .لذيذا جدا حينما كنت أطلب من جدتي حفنة منه فتزودني بها خفية عن باقي الصبية.. أما رجال القبيلة فقد انطلقت عندهم مراسيم الحضرة الربانية ، استدار القوم مشكلين حلقة أمام الضريح ، بدأت حينها أصوات البندير تعلو المكان ، والحناجر تصدح بكلمة " الله حي " " الله حي ..كان طقسا روحيا أخافني كثيرا ، ثم سرعان ما قدمت مي نجمة وباقي نسوة القرية تهللن وتصدحن بأصواتهم " الله حي ".

مشهد غبار يرتفع ، ومزيج أصوات من كلا الجنسين تملأ المكان ، كانوا يتحركون يمنة ويسرة ، رافعين رؤوسهم أو مخفضيها لأسفل...ثم لوحظ سقوط الشيخ بلمعطي ، جثة بلا حراك ، كان الرجل النحيف قد وصل أعلى درجات الحضرة وهي أن يغيب عن الوجود .وما هي إلا أن تبعه آخرون يتهاوون كأوراق الخريف الصفراء.

لم ندرك ما حل بالقوم ، وحينما كنا نسأل كانوا يجيبوننا بكلمة " حتى تكبر وتعرف" ..كبرنا وما عرفنا أسرار تلك الحضرة الغريبة ، ومعها عجزنا عن فك ألغاز القبة المفتوحة ، وقصة تلك الحوافر المنحوتة بعناية على جانبي الباب الوحيد لضريح سيدي الفحلي.

ومما قالته جدتي لي –وهي مصدر معلوماتي زمن الطفولة- أنه في المكان الذي تقام فيه الحضرة الربانية مدفون فرس الولي صاحب القبة ، وأن هذا الجواد الجامح بعدما علم بموت سيده ظل

يعدوا ليوم كامل ، حتى أدركه المشيعون ، فأدخله أحدهم في منزله ، ربطه بإحكام في إسطبل طيلة شهر كامل ، بعدها شيد القوم على القبر تلك القبة الطينية ، المبنية بالحجر الصغير المشذب بعناية ، وبدون تبليط حيث يبدو أنها تعود لزمن قديم ، لا أحد يعرف تاريخه بالتحديد.

تحكي جدتي حادة أن الجواد وبمجرد تمكنه من فك قيده ، فر يعدو بأقصى سرعة ممكنة لديه ، ولم يوقفه سوى ضريح مولاه الذي وجده قد شيد ، فتراجع قليلا إلى الخلف ثم قفز عاليا حيث ارتطم بواجهة الضريح ، وسقط ميتا بلا حراك..لتظل تلك الحوافر الأربعة آثارا شاهدة على ذاك الجواد الوفي.

الكاف:أسطورة كلب غامض

فوق هضبة مرتفعة تنتصب صخور جرانيت متصدعة بلون بني تبدو ككتلة حجارة نحتتها الطبيعة فأضحت كأنها خطت بريشة فنان..وسطها توجد مغارة أطلق عليها الأهالي"الكاف" ربما كانت الكلمة محرفة عن "الكهف" ثم حورت إلى الدارجة بعد اختفاء حرف الهاء الصعب نطقه بين أحرف لغة الضاد"اللغة العربية".

كنا ونحن صغار نمر على مقربة من ذلك المكان الغامض في الطريق نحو المدرسة،وأذكر أني ركبت ذات مساء مع خال لي كان يدعى"الفقيه بلفقير"،كان رجلا كريما دمث الأخلاق،يحبه الصغير قبل الكبير،ولا تكاد القبيلة تجمع على محبتها لشخص أكثر منه،لذا كنا ننتظره نحن الصبية قرب المدرسة حتى يمر علينا بشاحنته الكبيرة من نوع"فورد" ولعلها كانت من أوائل الشاحنات التي امتلكتها القبيلة في بداية التسعينات من القرن الماضي.. وأنا أركب بجانبه أني سألته لما اقتربنا من"مغارة الكاف" عن سر ذلك الكلب الغامض الذي يترصد المارة،فقال لي:

-"إنه مجرد كلب يسكن هاته المناطق الخربة،ولعل كلاب القرية أشرس منه وأقوى نباحا،وإني لا أخشى عليك من الكلاب وأنت تظل تطاردهم ليل نهار"..ثم أطلق ابتسامة عريضة أدركت حينها أنه يود نزع الخرافة من عقلي حتى يطرد عني ذلك الخوف الذي شعر به وأنا أوجه له السؤال المشوب بالخوف والقلق.

سأعلم فيما بعد أن خالي نفسه قد واجهه ذلك الكلب المخيف ليال كثيرة،وكان في كل مرة يعترض سبيله،ولما تستمر الشاحنة في السير يطلق نباحه المرعب وهو يظهر تارة على يمين السائق وتارة على يساره،وفي أحيان كثيرة يلمحه خالي وقد سبق الشاحنة بخطوات يعدو ويعدو ..إلى أن يختفي كما لم يكن أصلا.

ثم سمعت حكاية أخرى عن امرأة متشحة بالبياض،كانت هي كذلك تظهر للمارة ليلا في نفس مكان ظهور الكلب الأسود،ذلك الكلب الذي ظلت قصته تتضخم في مخيلتي حتى كنت أتخيله وحشا مخيفا ربما برأسين أو ثلاثة،حدث ذلك لي لما شاهدت بضع صور لكلب الجحيم لدى الإغريق"

سارباروس" أو الكلب ذو الثلاثة رؤوس..كانت الحكاية تحضرني ليلا فأحاول طردها من مخيلتي الصغيرة مستنجدا بتشجيعات والدتي وكلام خالي الطيب الذكر.

غير أن أحدهم قص علي ذات يوم أن سائقا لشاحنة اعترضته "المرأة المتشحة بالأبيض" ولما ركن شاحنته على حافة الطريق تاركا لها المجال لتصعد،فإذا بهي تفاجأ من سكوت المرأة المطبق،فلما أطال النظر فيها بدت له أنها لا تشبه نساء بني البشر،وحينها لمح رجليها التي أرعبه شكلها بعدما توهم أو هكذا بدا له أنه يرى:

-جسد امرأة بحوافر جمل.

حينها يكمل صاحب الحكاية أن السائق ضغط بكل قوة على دواسة السرعة وأضحى يقود شاحنته بسرعة جنونية وعينين شبه مغمضتين وهو يرتل ما رسب في عقله من أيات قرآنية لعلها تنجيه من الورطة التي حشر نفسه فيها،يختم الراوي كلامه بأن السائق المسكين لما ابتعد كفاية عن مجال"الكاف الموحش" فتح عينيه بحذر شديد واسترق نصف التفاتة كانت كافية ليعرف أنه يركب وحيدا وأن المرأة-الجنية التي كانت تجلس بجانبه قد تبخرت في الهواء.

ساعتها استعاد المسكين أنفاسه،وحمد ربه،وأقسم يمينا أنه لن يحمل معه أي امرأة في شاحنته مستقبلا خاصة إن كانت ترتدي البياض،ذلك البياض الذي تحول عند صاحب الشاحنة إلى كابوس أسود كاد يودي به فزعا.

كنت وأنا بعد صغير تتقاذفني هاته الخرافات التي تتحول عندي من حين لآخر إلى حقائق لا غبار عنها،خاصة لما أربطها بحكايات أخرى كانت ترويها لنا الجدات متعلقة بذلك الكائن الغامض المخيف:

-"الغول".

كنا نسمع عن اختطافه للفاتنة"هاينة" وعن افتراسه لقطيع القرية،أو اختطافه للصبية وهم صغار من حجر أمهاتهم..وحتى زوجته "الغولة" لم نكن في مأمن من شرها في مخيلتنا لما نستحضر ما فعلته لابن أخيها في حكاية"حديدان الحرامي وعمته الغولة".

أذكر أني كنت أسير ذات مساء في الطريق وحدي عائدا إلى قريتنا بعدما تخلف أقراني عن المدرسة في ذلك اليوم الذي هطل فيه المطر بكميات كبيرة تحولت معه الأرض إلى برك موحلة،وأضحت السماء مكفهرة بينما تجمعت السحب الكثيفة تسقط سيلا من المطر بينما كان الرعد يزمجر بغضب شديد من حين لآخر،فغاب ضوء النهار وتحول إلى لون الرماد ولم تعد الرؤيا ما كانت قبل قليل،فقط ومضات البرق هي من كانت تبعث النور وترسل نوعا من الدفء الذي كان جسمي الصغير في حاجة ماسة إليه بعدما تبللت الثياب رغم توفري على قطعة بلاستيك بيضاء كانت أمي قد زودتني بها لهكذا ظروف.

الحقيقة أني لم أنتبه حينها للطريق،كنت فقط أسرع الخطى آملا أن يقف الحظ معي ويمر علي خالي "بلفقير" بشاحنته فأركب معه حينها وقد أذهب للمبيت عند جدتي كما كنت أفعل في عديد المرات..غير أن ذلك لم يحدث أبدا،بل إن ما حدث لي بعدها لم أكن أتخيله حتى في أكثر أحلامي رعبا.ذلك أني لم أنتبه إلا وأنا على مرمى حجر من ذلك "الكهف الغامض" وما إن رفعت رأسي نحو فوهته حتى سرت قشعريرة أحسست معها أني فقدت فروة رأسي،وأن شعري قد تصلب كأنه تحول إلى أشواك برؤوس حادة..ولما تشجعت وخفضت بصري لأسفل حتى أتغلب على خوفي رأيت ذلك الكلب الأسود،رأيته بغير تلك العين التي كنت أرى بها كلاب القرية.

ربما كانت زاوية تلك النظرة التي لمحت بها"كلب الكاف" مدفوعة بالهلع الشديد بعدما استحضر عقلي لحظتها قصص هذا الكائن المهيب وما فعله بعابري الطريق،وحينها أدركت فعلا أني في ورطة حقيقية وأنها ستكون نهايتي إن لم أطلق ساقي للريح.

غير أن هذا الحل الوحيد الذي كنت أملكه لم يعد متاحا لي،فرجلاي لم تطاوعاني في الهرب،تخلتا عني في وقت كنت أحوج إليهما من ذي قبل،شعرت لحظتها كأن الدم توقف عن الدوران فيهما،وأني أكاد أسقط أرضا عقب كل خطوة مثقالة كنت أخطوها وأنا أحاول يائسا الابتعاد عن "الكاف المخيف"والذي بدا لي أكثر رعبا من أي وقت مضى.

ما قدرت عليه لحظتها هو محاولة تذكر بضع سور قصيرة كنا قد حفظناها عند الفقيه"بنعطيلة" أو في حجرات المدرسة عند المعلم"عبد الكبير"..كل ذلك ضاع في لحظة اجتمعت علي فيها وحشية المكان وغضب الطبيعة ووجود هذا الكائن الذي يلاحقني ويكاد يقضي علي.

ولما هممت بالصراخ لعله يطرد عني على الأقل تجد الدم في عروقي،لم أستطع فعل شيء أكثر من مجرد اصدار صوت أشبه بأنين محتضر أقعده المرض لم يعد يجمعه بأهل الدنيا سوى لحظات قليلة..غير أن مسلسل الرعب لم يكن ليقف عند هذا الحد،حدث ذلك لما تملكني الفزع واندفعت اندفاع اليائس كأني تحولت لنسر جريح يصدر رعشته الأخيرة وهو يحاول أن يلقي بجسده من أعلى على صخرة صماء في الجبل محاولا أن يتخلص من منقاره فيما يسمى"بسقطة الموت الحرة".

لم أعد حينها أدري ما أفعل،فقدت رباطة الجأش،وكنت على وشك ارتكاب حماقة لطالما حذرني الأهالي منها:

-لا ترمي بحجر قطا أو كلبا أو شيئا بلون أسود في الليل.

كانت تلك وصية الأهالي لنا،يكاد كل الصبيان يعدونها كوصية تضاهي وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه،نحفظها عن ظهر قلب،ونصيح في بعض وجه بعض أصدقائنا لما نلمس فيهم مخالفتهم للوصية لما تدفعهم شجاعة الجماعة لارتكاب هكذا أفعال..أما أنا فلم أجد مع شدة الخوف ما يذكرني بتلك النصيحة الثمينة،بعدما دفعني الموقف أن أمتلك شجاعة اليائس وأحمل حجرا

رميته في اتجاه ذلك المخلوق الذي يطاردني وأجده –كما روي لي تماما-مرة على يميني ومرة على يساري.

كان حينها قد سبقني خطوات لذا فقد لاحت لي فكرة مفادها أنه ربما لا يختلف عن كلاب القرية التي كنت دوما أطاردها وأما في قمة السعادة،ولما حملت الحجر ورميت نحو بما تبقى لي من قوة وجدت نفسي ملقى على ركبتي صريعا من هول ما شاهدت عيني وانفطر له قلبي.

فقد تحول ذلك الكلب المخيف في رمشة عين -ويا ليته بقي على هيئته- إلى امرأة متشحة بالبياض،أدركت حينها بما تبقى لي من عقل مفكر أني أمام:

-عايشة قنديشة.

لم يعد لي حينها مجال للهرب أو التفكير،بل إن رجلاي انهارتا في لحظة توقف للزمن،وحتى المطر المتهاطل لم أعد أشعر به،كان جسمي قد تحول إلى مجرد كومة من لحم جامد وضع في ثلاثة من زمن بعيد..وحدهما عيني من ظلتا جاحظتان تنظر إلى "المرأة الجنية" وهي تحملني في خفة شيطانية بيد واحدة وتحلق بي نحو مغارةالكهف القريب.

لا زلت أذكر وأنا شبه فاقد للوعي أن المرأة المتشحة بالبياض لحظة أن قذفتني في وسط فوهة"الكاف" أني رأيت أبناء لها كانوا بعدد حبات الحصى،وهم يتجمهرون حولي ويصدرون أصواتا مرعبة قضت على ما تبقى في جسمي من إدراك حسي لما يدور حولي.

لم أعرف ما الذي حل بي بعد ذلك،وماذا كانت المرأة-الجنية تود فعله بي:

-هل ستقدمني وجبة شهية لأبنائها الذين بدوا لي أشد فزعا من أمهم !

-أم ستكتفي تلك المخلوقات الغامضة بمص دمي،كما شاء عن الجن مصاص الدماء.

سأدرك يقينا وأنا أغفو من غيبوبتي أن كلا الاحتمالين لم يكونا ليصلا درجة ما أعده لي المرأة الجنية التي كانت تتحول إلى كلب أسود وهي ترقب فرائسها من على مشارف فوهة الكهف المطل على الطريق.

كانت هي وأبنائها المرعبين قد ارتموا فوق جسدي النحيل بحيث لم يتركوا لي سوى فرصة التنفس بصعوبة شديدة حتى يحافظي على جسدي حيا لغرض خسيس سأدرك من إشاراتهم نحو راحة يدي وهم يقلبونها بينهم تمهيدا لقطعها وحملها نحو ساحر كان ولا شك قد كلف"عايشة قنديشة" بالمجيء بها إليه حتى يستخرج الكنوز التي لا تفتح إلا بكف"زوهري" أو "إراقة دم صبي زكي".

وحده لساني كان قد فك لتوه،وأخيرا طاوعني في استجماع صرخة مدوية أطلقتها في لحظة توقفت عقارب الدنيا عندي في فوهة ذلك الكهف المخيف،ولم أشعر حينها إلا وأمي"السعدية" تمسك بفمي لتسكني حتى لا أوقظ باقي إخوتي،بعدما صادف وجودها قربي لتخبرني:

-"باسم الله عليك يا ولدي..قم فقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة."